حسام العادلي

نجع بريطانيا العُظمى

رواية

الدار المصرية اللبنانية

1

قناة السويس.. شركة مساهمة مصرية

مع شقشقة الفجر، خرج زين من باب الدوار، ومضى إلى الساحة الفسيحة. أبوه؛ العمدة حسن، جاء من خلفه متعكزًا على عصاه. تملى العجوز في شباب الابن مزهوًا بطوله وعرضه. وهو يصلح له لفة العمامة الكبيرة الرابضة فوق رأسه. مشي زين إلى الحنطور ليقله إلى البندر، حيث محطة القطار المنسية في أحراش الصعيد. يقدم خطوة ويؤخر مثلها؛ ضيقًا بمهمة السفر العاجلة المكلف بإتمامها في القاهرة لمدة يومين. تفزز الفرس يجر الحنطور، طارقًا به أزقة نجع السعداوية الخاوية، والمشبعة برائحة البوص المحروق، ثم انعطف من أمام بيت «مغاوري» خادمهم القديم. انقبض لما لمح فاطمة - ابنة مغاوري - تطل من الشباك.

من أول الليل وهي تنتظر مروره، تقضم أظافرها في قلق، تشد أطراف ضفيرة شعرها الطويلة المجعدة. والحنطور يتأرجح به من تحت شباكها تواجها تمامًا: ملامحه متكدرة، وعيناها تسح له دمعًا غزيرًا، يناشده الوفاء بقسمه تجاه الجنين المتشبث في أحشائها بإصرار، هز لها رأسه - على مضض - مؤكدًا على صدق وعده لها.

* * *

وصل زين المحطة، وأقبل القطار متهاديًا يدق القضبان، انطلق به في رحلته الطويلة متمايلًا على تعرجات شريط النيل، وفي المساء دخل به حرم العاصمة يتغندر أعلى ترعة الإسماعيلية. طش وجهه هواء المدينة العملاقة، رطبًا ومخنوقًا بزمتة آخر سبتمبر. خرج من المحطة واستقل سيارة أجرة لتوصله إلى سوق روض الفرج، قاصدًا فيه بيت عمه حسانين الذي سينزل فيه أثناء رحلته القصيرة.

القاهرة؛ يراها لأول مرة في حياته، سرّح مع تصوراته السابقة عنها، كما جاءت على لسان كل من زارها من أهل نجع السعداوية وعاد يحكي عنها: مدينة العجب والعجائب، ست الحسن والجمال، ولكنها غدارة كالحية لا أمان لها. الباشوات أمثال برهان باشا - الذي كان لا يرى في النجع إلا مختالًا في فراندة السرايا - تجدهم في الطريق مثل الزلط والحصى. الأفندية يتكلمون باللهجة البندرية

maktabah.blogspot.com

الرشيقة، ويتأنقون في البدل الإفرنجية والقمصان المنشية. نسوانهم معجبانية، بضات لا يسترن إلا القليل، يدخن سجائر رفيعة، ويعانقن الرجال في الطريق عيانًا بيانًا.

أفلتت السيارة من زحام ميدان التحرير إلى طريق الكورنيش، تخشع في مقعده متخيلًا الشوارع والميادين حوله؛ كما سمع وصفها في الراديو، قبل أربع سنوات - عام 1952- وقتما اكتظت بالأفندية صباح يوم ثورة الجيش المباركة؛ يحتفون بالدبابات وهي تجوب الشوارع وفوهات مدافعها مشهرة في وجه الملك، يلتفون بفرحة عارمة حول سيارات الجيب المكشوفة المتدفقة من الثكنات، بداخلها الضباط في البدل المحبوكة بالقايش اللامع والبيادات الطويلة. يصدح هتاف الميادين عاليا بحياة البكباشية الشبان الذين خلعوا الملك، ونزعوا بجسارة شارة تاجه من فوق أكتافهم وكاباتهم الكبيرة.

يطالع زين وجه القاهرة الضاج بالمدنية ويتضاءل في نفسه؛ يعلم أنه - سليل السعداوية - بكل تاريخ أجداده غفد النجع السابقين، في غرف المحروسة مجرد قروي جلف لا وزن له أو اعتبار؛ فهي - المحروسة - المتعالية المتعجرفة، سمع من الأفندية - في الراديو- أن القاهرة احترقت سخطًا على الملك العابث وضيقًا بالنحاس باشا ومن قبلهما الإنجليز لتبدأ مع الضباط زمانهم، فجاءت أيام الثورة صاخبة تنبذ كل من له صلة بالعهد الملكي البائد؛ إيذانًا بانتهاء زمن أجداده السعداوية، السيف القاطع لرقاب أهل النجع، ثم انتقل هتاف الثورة عارمًا إلى النجع لما أكد الضباط أن جميع المواطنين عندهم إخوة؛ فلم يتقبل أوضاع العصر الجديد، أن يكون قدر أبيه العمدة الكبير، مساويًا لقدر مغاوري الخادم المتبجح على سيده القديم. تمزذ - وابنته فاطمة - على الخدمة في الدوار، بعدما امتلك قوته من فدادين الإصلاح الزراعي.

منذ شهور؛ يعيش زين أيامًا عصيبة بعد عزل أبيه من منصب العمدة، حلت به الكارثة تزامنًا مع فرحة الأهالي بمزاعم الانتصار النهائي على السعداوية الظالمين، بعد علمهم أن الضباط الأقوياء طردوا الإنجليز - أنصار السعداوية - من مصر بلا رجعة، فجاهروا بتبجح أن : الضباط كما اقتلعوا الإنجليز الكفرة من البلاد، سيطردون جميع السعداوية الملاعين من النجع. تعجب زين حين أدرك جموعهم تمر من أمام الكامب الإنجليزي بمنتهى التبجح، بعدما كان الشجاع فيهم يرتعد لمجرد رؤية أسواره من بعيد وأمامه العساكر بسلاحهم الرهيب، أو يلمح وجه ضابط الكامب «هاريس» متوهجًا بخمرته الإنجليزية، ثم توارتوا

maktabbah.blogspot.com

الرهبة من المبنى القديم - أبناءً وأحفادًا - حتى بعدما هجره هاريس وغادر نجع السعداوية بلا عودة.

ليلًا؛ يقصد زين مقام الشيخ الطشطوشي اللصيق بالكامب القديم؛ يشكو له حاله، فالمقام ملاذه الدائم ولكل أهالي النجع، لا يفر يوم إلا ويركع المأزومون أمام شباكه، يتوسلون بقبته الطينية الخضراء، يتمسحون في بابه القصير، يغترفون من تراب ساحته الصغيرة ليمسحوا به فوق رءوسهم. لكنه ينتظر مؤازرة مولاه «الطشطوشي» له وحده في معركته مع خصومه، يتوسل باسمه ليل نهار أن يخصه وحده ببركاته ويحجبها على أنذال النجع، ويقهرهم بعزائمه السماوية؛ لن يرضى الولي بأفاعيلهم الخسيسة مع السعداوية، وشماتتهم في عزل العمدة، يبقى في انتظار أن تقصفهم لعناته إكرامًا لخاطر جده السيد العمدة الكبير؛ رفيق الشيخ وصاحبه المقرب، أول من استقدمه إلى النجع، يضايفه، ويكرمه، خصص له غرفة في الدوار يقيم فيها، لا تُفتح أبدًا إلا بقدومه كل عام في ليلة المولد.

وكرامة للعمدة الكبير لم تصعد روح الطشطوشي إلى السماء محروسة بالملائكة، إلا من بيت صاحبه - العمدة السيد - الذي بنى المقام وأودع فيه جسده الطاهر.

عبرت السيارة الأجرة كوبري روض الفرج، دخل السوق الساكن بعد نهاره الصاخب. توقفت به السيارة أول الحارة عند بيت حسانين. استقبله أحد صبيان عمه - بتكليف سابق منه - وعاونه في نقل الأمتعة. فتح له شقة مجهزة بأثاث كامل، ومن شرفتها أشار له ناحية مقهى بلدي علته يافطة «مقهى الثورة» على ناصية الشارع، أخبره أن عمه سيقابله فيه صباح باكر.

* * *

.. في الصباح؛ لفظه السرير بعد ليلة متأرقة، نزل إلى الشارع، ومن مدخل البيت تمشى إلى المقهى. في جلبابه بدا طويلًا كالمارد، سحب كرسيًا وقعد. الوقت مبكر، السوق لم ينصب بعد، شوادر الخضار هامدة حوله وأقفاص الفاكهة مغطاة بالخيش، صبي المقهي بجانبه يرص الكراسي ويغسل الشيش. ومع بدء توافد التجار على دكاكينهم، اختلط في سمعه صخب الفصال بعراك البيع والشراء، ذهنه منشغل بأسباب سفره الطارئ : مقابلة عمه حسانين والتوجه بصحبته إلى فيلا مستر هاريس، لإتمام شراء مصنع «الخواجة هاريس».

maktabah.blogspot.com

مهمة السفر ثقيلة على نفسه، لكنه اعتبرها سبيلًا - ولو مؤقتًا - للهروب من أزمته مع فاطمة، ورغم ذلك لم يستطع نسيان منظرها الكئيب بالأمس في الشباك قبيل سفره، ثم تذكر نواحها منذ أيام وقتما أبلغته بكارثة حملها منه، وخوفها من إجهاض نفسها. لم تفارقه من وقتها تصورات تبعات تلك الورطة الكبيرة، فخلال أسابيع قليلة ستستدير بطنها لتعلن للنجع عن الفضيحة المدوية. توالت أفكاره السوداء عن الأحداث القاتمة إذا رفض الزواج منها - أو حتى تأخر فيه؛ عليه الإسراع بطلبها للزواج من مغاوري اللئيم فور عودته من القاهرة بعد الغد، والدخول بها في أسرع وقت ممكن؛ ليكون مولود الخطيئة - أمام الناس - ابن فراش الزواج، ولا يلاحق بعار آخر غير أنه حفيد مغاوري!

تظل نفسه تُبكتهُ على صلتهِ المهينة بابنة خادمهم الوضيع؛ مكانتهُ الرفيعة لا تسمح له بالزواج منها، حتى لو أحبها ونفخ رحمها، لكنه تلطخ بنجاسة العلاقة معها وإنجاب طفل - حرام - تجري في عروقه دماء مغاوري الزفزة، ثم يلوذ عاجزًا بصور من الأمنيات الانتقامية : لو لم تقم الثورة لكان هو العمدة الآن، وسحق فاطمة وخنق طفلها ابن الحرام في بطنها، ومن قبلهما صلب مغاوري اللعين عاريا على جذع النخلة وبالكرباج مزق لحمه، أو إذا استحضر جبروت جده العمدة السيد الكبير ليدفنهم أحياءً. ولكن سريعًا ما يستردهُ الواقع القاسي ويواجهه بضعفه وقلة حيلته، فهو مجرد ابن عمدة معزول بلا وظيفة أو أي مؤهلات، وعلى شفا السقوط في هاوية الفقر، مهدد بفضيحة مع ابنة خادمهم!

لا أمل له في استعادة العمودية المنزوعة منهم؛ منذ قيام الثورة ورحيل الملك، والأحداث المتلاحقة تسير كلها ضدهُ وتحبط أحلامه، قبل أسابيع؛ تسمّر في قلق أمام الراديو محاطًا بجمع من السعداوية، ينصتون في ترقب لخطاب «عبد الناصر» من الإسكندرية. خرق أذنه هتاف الرئيس بحس كالرعد «تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية»؛ صدح الراديو بالهتاف الظافر مؤيدًا بالتصفيق العنيف. لم يفهم المغزى وراء كلمات الرئيس الواثقة، لكن احتفالات كل عيد من أعياد الثورة في يوليو، غدت فأل شؤم عليه، تصدر بمناسبتها قرارات وبيانات تنصف الرعاع من أهالي النجع، سريعًا ما تفشى آثارها بينهم كالعدوى؛ فيزداد تطاولهم وقلة أدبهم، ولعل الحماسة العارمة المتدفقة من الراديو سببها قرار جديد، يرفع واغش النجع درجة ويهبط بهم - أسياد الماضي القريب - مثلها. ثم تعلقت كافة الأنظار الزائغة القلقة بأبيه؛ العمدة حسن، حتى لو كان معزولًا، فالمؤكد أن لديه تفسيرًا لما يسمعونه ولا يفهمونه..

مكتبة maktabbah.blogspot.com

***

.. والعمدة حسن - كبير السعداوية - يواجههم قاعدا فوق كرسيه، مائلا بجذعه للأمام في نصف انحناءة، متكئا بكفيه المعروقتين على عصاه. يرمق الراديو بكراهية، تعتصره مرارة هوانه عند الضباط الشبان، وتعنت أصحاب السلطة الجديدة معه، ورفضهم له رغم محاولاته المضنية للتقرب من دولتهم. قرار تأميم القناة، لم ير فيه ضررا محتملا له أو لذويه، بل تأكد له سريعا أنه طائش وغير محسوب، يهتك كرامة الإنجليز أسياد الأرض ويستفز جيوشهم المرعبة. خطوة ستجرُّ على «عبد الناصر» كوارث لن يطيقها؛ ليراوده أملا قويًا باندحار الضباط المغامرين، واقتراب نهاية ثورتهم المزعومة مثل هوجة عرابي؛ إذ تذكر تجهُّم مستر هاريس وقتما سأله عن طموحات النحاس باشا، بتأميم القناة كما يُروِّج دائمًا أيام الانتخابات ومن ورائه مرشحو الوفد؛ توهجت الخمرة بشدقيه المنتفخين، ليزد في صرامة - بلغة عربية سليمة إلى حد كبير- مُلوحا بسبابته :

- النحاس باشا أذكى من ذلك.. دعاية انتخابية منه لكسب تعاطف الغوغاء.. هو يعلم أن بريطانيا العظمى لن تفرط في قناة السويس ولو خرجت جلالة الملكة فيكتوريا من قبرها.

نصب العمدة ظهره منتشيا، زمّ شفتيه ثم فكهما بابتسامة خفيفة، وردّد للحاضرين بصوتٍ مُترنِّح يحمل توسمات شماتة لاقتراب نهاية الضباط :

- وَلد عبد الناصر لسه صغير والدنيا غزاه..

انشرح السعداوية لبشاشة وجه العمدة واستطلعوا تفاؤله؛ يستحثون كبيرهم بنظرات الرجاء أن يُكمل حديثه الشجي لأسماعهم، لكنه نَقَّ برأسه والتزم الصمت، بسبابته داعب شاربه الشائب في جبور، طارت به الأماني الأثيرة متصورًا الكيفية التي ستبدأ بها الحرب الفاصلة - الآتية لا محالة - التي سيشنها الإنجليز لينتهي معها كابوس الثورة للأبد وتمادت أمانيه نحو محاكمة البكباشية؛ فتمثلت له وقائعها : جمال عبد الناصر ذليلا في قفص المحاكمة وإلى جانبه «عبد الحكيم عامر»، يرتعدان أمام السفير البريطاني الغاضب، وهو يقدحهما بالعربية المكسرة بالإنجليزية المحببة إلى سمعه، ولا يتوقفا - عبد الناصر وعبد الحكيم - عن طلب العفو والسماح منه، ثم عرج خياله المنتشي يصوِّر له مشاهد كاملة من مراسم الاحتفال بعودة الملك من منفاه، وتنصيب الإنجليز له على عرشه المنتزع، بل وراه يوقع على قرار إعدام الضباط المتمردين بلا تردد، وسط

maktabah.blogspot.com

احتفاء شعبي بعودة الحق إلى أصحابه، وبالتبعية يسترد هو مقاليد العمودية من جديد، ويؤدب أهل النجع كافة على أفاعيلهم معه.

تنسم بشائر الخلاص من الضباط فسحب نفسا عميقا أنعشه؛ عاد بذكرياته يسترجع أكثر أيامه مجدا قبل الثورة : حينما زار المديرية مستر هاريس المهيب صديق أبيه القديم؛ الذي ترقى في السنوات الماضية : من ضابط الكامب في نجع السعداوية - وقتما عرفوه - إلى ذلك السير الإنجليزي المرموق السكرتير الشخصي والصديق المقرب للسفير البريطاني، وقد أصر هاريس على اصطحابه في سيارته إلى مقر ديوان المديرية. اجتازت بهما السيارة «الرولزرويس» السوداء بوابة الديوان، مسبوقة بأبهة الانتصار في الحرب العالمية الثانية، على مقدمتها يُزفرف العلم الإنجليزي في إباء، محاطة بكونستابلات الشرطة تدوي بالسرائن العالية. الزيارة لعقد اجتماع مع القوى السياسية بمناسبة قرب الانتخابات النيابية، وتكليفه من السفارة البريطانية بدعم بعض المرشحين في الدوائر؛ لخبرته القديمة بأهل الصعيد بعد طول إقامته فيه.

مدير المديرية (المحافظ) ومن خلفه حكمدار البوليس، ينتظران وصول الموكب في ساحة الديوان. ينزل مستر هاريس من السيارة في غرور، وبخطوات واسعة يمضي ناحية الباب إلى داخل المبنى. لا يمد يده إليهما بسلام لا يستحقان نيل شرفه، مكتفيا بنظرة إنجليزية حادة. وبينما هما يتراكضان حوله كفأرين مذعورين، الخواجة يُقدم العمدة عليهما بإشارة متعالية من سبابته لهما. عيناهما منكوتتان في الأرض تقتفي خطوات الخواجة المتعالية، يمشي بجانبه العمدة في جلبابه وعمامته، وهو يُمازجه في ود بحديث باسم؛ فيتعجبان من الصلة الوثيقة بين عمدة السعداوية - الأب والابن - وهو من أجلاف الفلاحين، وبين مستر هاريس؛ المعروف بعنصريته الإنجليزية الشديدة؛ إذ يجاهر في كل محفل باحتقاره للمصريين كافة؛ يراهم أصفارًا : وزراء، وأفندية، وفلاحين.

لا تفوته مناسبة إلا وسخر فيها من الملك فاروق؛ يسميه الطفل الغرير، يقولها وهو يُقرب كفيه من بعضهما باستخفاف؛ إشارةً منه لصغر سنه واهتزاز شخصيته، ويحكي عن تحكم علي ماهر باشا، وأحمد حسانين باشا في القصر وفي الملك وأسرته، وإنه في الواقع لا يخاطب غيرهما في اتخاذ أي قرار هام.

***

.. بيد أنه في الأيام التالية لتأميم القناة قامت الدنيا ولم تقعد، وحدث ما لا

maktabbah.blogspot.com

يخطر على بال العمدة حسن ولا أي عاقل، فقد ذهل الجميع لارتعاش الإنجليز الفتاة وانكسار شوكتهم، لم يدفعوا بجيوشهم الجرارة ضد ضباط الثورة، بل سارعوا يغادرون البلاد بوسع خطاهم، يعرضون بيوتهم وكافة ممتلكاتهم للبيع بأثمانٍ زهيدة؛ خوفًا عليها من مصادرة «عبد الناصر» لها أسوةً بقناة السويس.

ولما سمع حسانين من تجار سوق روض الفرج، أن مستر هاريس ينوي الرحيل من مصر نهائيًا، بعدما علم اعتزام مجلس قيادة الثورة تأميم مصنعه الضخم، فأعلن بيعه بزبع قيمته. طرق حسانين باب هاريس صديقًا ثم شارنًا، واستنزل شيئًا من الثمن بحكم العلاقة القديمة، فوافق بنفس كسيرة. اتصل بالعمدة حسن من السنترال بالترنك المستعجل، وعرض عليه شراكته في صفقة شراء المصنع الكبير؛ أيدة فيها حسن وخلال أيام كان قد رهن الأطيان الزراعية - المحدودة - في النجع، وباع المحصول قبل حصاده بنصف الثمن، ثم أودع كل «البنكنوت» المتاح في حساب حسانين؛ ولظروفه الصحية أوفد زين إلى القاهرة، لإتمام الصفقة نيابة عنه.

وفي المكالمة أبلغه حسانين صدمته وحزنه؛ لما رأى الخواجة هاريس قعيدًا فوق كرسي متحرك؛ يتذكر العمدة حسن في أسى عنفوان مستر هاريس، وسطوته الخرافية - أيام الملك - على القطر المصري بأسره. يحزن على انتهاء الحال بالرجل القوي إلى عجوز يتسول من يشتري بيته ومصنعه. لا ينكر أبدًا - هو ولا أي نفر من السعداوية - فضل مستر هاريس ودعمه الدائم. ويوم حل علمه في الدوار- بكل هيلمانه - يعزيه في وفاة أبيه بشكل رسمي، وأبدى حزنًا شديدًا - وحقيقيًا - لفراق العمدة السيد، ووصفه «الصديق الوفي المخلص».

عزاء مستر هاريس له في الدوار، كان له أثر بالغ في الحفاظ له - مؤقتًا - على العمودية، ليؤكد بها للمديرية وحكمدارية البوليس أن صديقهم القديم، لم يتخل عنهم بعد وفاة الأب.

بعد تأدية واجب العزاء في دوار العمودية، أراد مستر هاريس زيارة الكامب الإنجليزي الذي عاش فيه. ترجل إلى المبنى القديم، وأطال الوقوف أمام مقام «الشيخ الطشطوشي» وظل يحدجه بمقت شديد. أمر العساكر المرافقين له بفتح باب الكامب المغلق منذ سنين طويلة. تمشى في الفناء الفسيح، دخل إلى بهو المبنى، ثم صعد للطابق الثاني، جرى بصره بين الردهات الكالحة والغرف الخاوية.

maktabah.blogspot.com

لمح العمدة دمعة تتراكم في عين هاريس، أطرق برأسه يمنعها، وأشاح يطل بوجهه من النافذة المتهالكة، مشيرًا بسبابته ناحية النجع المنبسط أمامه كلوحة خضراء زاهية، ليحدثه بفخر: بفضل وجود الإنجليز، تغير النجع كثيرًا عما كان عليه قبل ثلاثين سنة؛ قامت بيوت من الطوب لها شبابيك وأبواب، بدلًا من قباب الطين والروث التي كان يسكنها الفلاحون، وقد تحسنت أحوالهم المالية بفضل تطوير الإنجليز للزراعة ونظام الري، فلبسوا أحذية وجلاليب، بعدما كان أغلبهم عراة وحفاة. الساحات العشوائية تخططت لتصير طرقًا حقيقية ذات شوارع وأزقة. العمدة حسن يقف أمامه مسبلًا ملامحه في يقين كامل بما يسمع منه، يومئ له برأسه مؤيدًا لكلامه. ثم أردف بغضب :

- هكذا المصريون دائمًا أنذال.. ينكرون فضل بريطانيا العظمى على تغيير حياتهم للأفضل.. بدلًا من الاعتراف بالفضل يحقدون عليها.. يُزبون أبناءهم على كُرهها بشدة..

قبل نهاية المكالمة؛ أكد حسانين لأخيه العمدة أن «كارمن» ابنة الخواجة قادمة من لندن خلال أيام، لتنهي إجراءات بيع المصنع، وفيلا جاردن سيتي، وتصفية سائر الممتلكات، وهو ما زاد من حسرة العمدة على الخواجة؛ فلجوئه إلى كارمن يعني وصوله إلى قاع الحضيض؛ فعلاقتهما ليست كأب بابنته، بل هما عدوان لدودان؛ منذ شبت - كارمن - صبية ولا حديث له إلا عن جحودها وصدامها الدائم معه، يشهد الناس على عقوقها وقسوتها، وعدم ترفعها عن علاقتها بأنور صديق؛ الضابط المصري المتمرد، وكيف أنها هجرته بالسفر من القاهرة إلى لندن. تتناثر تهامسات أكدها بعض المقربين منه، أنهم سمعوه مرارًا في نوبات سكره الشديدة يهذي بأنه : يشك لحد اليقين أنها ليست ابنته، وفي قمة ثورته يصرخ باكيًا أن : زوجته الراحلة الكونتيسة «ماري أودونيزي» بكل أصلها الإنجليزي العريق وتاريخ ونبل أسرة «أودونيزي» ودمائهم الزرقاء؛ ما هي إلا عاهرة وزانية مع عشيقها الفرنسي الوغد، استغفلاه ونسب الفاجران الطفلة إليه زورًا.

*****

2

نجع السعداوية

مرت ساعة ولا زال زين على المقهى ينتظر قدوم عمه حسانين حسب الموعد.

maktabah.blogspot.com

نَادى على صبي المقهى، طلب شايًا ثقيلًا وتعميرة دخان على الشيشة. صاح الصبي :

- عندك هنا.. شاي وشيشة للعمدة..

في المعتاد ينشرح زين عند تلقيبه بالعمدة؛ يستعيد معه سيرة أجداده القديمة. لكن اللقب من صبي القهوة لم يَحبذه، بل أزعجه؛ فقد سمعه حالًا يمنح اللقب الرفيع - الذي لا يعرف قيمته - لثلاثة من العمال والأرزاقية القاعدين حوله. أدرك أن الصبي لم يُنادِهِ «بالعمدة» لأنه يعرفه شخصيًا، أو يتوسم فيه وقار الغمد الحقيقيين؛ إنما لمجرد هيئته الصعيدية مثل سائر العمال من حوله؛ فلا تمييز له عنهم أو عصمة لمكانته، النكرة والمجهولة، يُدعى هنا بالعمدة - وعلى سبيل الاستخفاف - طالما لبس جلبابًا أو لَفَّ عمامة على رأسه.

رفض إدراجه مع أولئك العمال - الصعاليك - في خانةٍ واحدةٍ، رغم أنهم صعايدة مثله ولكنهم لا يتساوون معه. وجد نفسه - تلقائيًا - ينفُخ صدره ويَشمخ برأسه للوراء، وبرَمَ شاربه وهو يمدّ ساقه أمامه، ليكشف للصبي عن حذائه اللميع، عساهُ يستشعر فيه ثمة اختلاف عن من حوله، أو يُعجب بقماش جلبابه الفاخر وخاتمه الكهرمان؛ فيحظى بمعاملة تليق بابن عمدة نجع السعداوية ولو كان سابقًا. بينما الصبي لم يهتم بكل ما جاهد في إظهاره، بقي في نظره مجرد صعيدي وافد في جلباب وعمامة مثل العشرات حوله؛ جاءه بالشاي في كوب عادي، والشيشة رزعها بجانبه في غير اعتناء. أجفل زين يلعن في سره البندر يختلط فيه الحابل بالنابل. فَرّ بخواطره من القاهرة؛ ذلك المكان الموحش الذي لا يعرف قدره، إلى عالم نجع السعداوية؛ المُسمى قبل ثورة ضباط يوليو على اسم أجداده.

* * *

.. السعداوية - أو آل سعد الله : هم جميع من تنتهي أسماؤهم باسم «سعد الله»، جدهم الأكبر الشيخ سعد الله السعداوي؛ المزارع ميسور الحال، نسيب العمدة القديم للنجع، أنجب من زوجته - شقيقة عمدة النجع وقتها - أربعة ذكور أشداء أجداد السعداوية الحاليين.

السعداوية كانوا عائلة متواضعة في النجع، إلى أن تحقق مجدهم ابتداءً من محمود؛ الابن الأوسط للشيخ سعد الله، بعدما عينهُ خاله - العمدة القديم - شيخًا للخفر خلال هجمات المطاريد على النجع وسائر القرى المجاورة، ينزلون

maktabah.blogspot.com

على النجع من شقوق الجبل كالقضاء المستعجل، هلوف ملثمون فوق جياد سوداء يشقون الظلام، في أياديهم بنادق محشوة بالرصاص وزكائب طامعة، يهجمون على البيوت ينهبون المال ومصاغ النسوان، يسوقون أمامهم البهائم محملة بشكائر الغلة.

ذاع صيت المطاريد الجبابرة، وزعيمهم المخيف شيخ المنسر«رزق». انتشرت أنباء فظائعهم المروّعة من حدود المركز إلى الصعيد كله، تطايرت أخبارهم مزوّدة بالإشاعات المفخمة بالتهويل، تتحاكى عن المطاريد شفراء عزرائيل آكلي الأكباد النيئة. العمدة وشيخ الخفر لا حول لهما ولا قوة، وكذلك أخفق المركز في صدهم، ولم يَرد إجرامهم حتى مع استدعاء شرطة الهجانة بإبلها المشرسة، وعساكرها النوبيين الغشم.

ولما فشلت الحكمدارية في ضبطهم أو حتى وقف هجماتهم، قرعت الاستغاثات المتوالية بالأمن سمع وزير الداخلية، فأقال حكمدارين للمديرية في غضون ستة أشهر ثم بدوره عزل الخديو وزير الداخلية عشية هجوم المطاريد على شونة قطن ضمن أملاك الخاصة الخديوية، بعدما نهبوها بالإكراه، وقتلوا حرس الخديوية وسرقوا سلاحهم. ليظل السيد؛ ابن شيخ الخفر محمود سعد الله، يتقلب ويزن غاضبًا كالطنبور من استباحة المطاريد للنجع ووقفة أبيه عاجزًا حيالهم. لم يخشهم الابن الجسور بل فكر مرازا في حيلٍ شتى للقضاء عليهم.

***

.. السيد؛ الابن الوحيد لشيخ الخفر محمود سعد الله : شاب غفي، طوله متران، كفه مثل خف الجمل، عاشقًا لساعة الحظ والفرفشة؛ لا يفوّت ليلة إلا ويركب حنطوره من النجع قاصدًا البندر، حيث غوازي الموالد اللاتي يُطيرن عقله، يظفر بوصالهن في سهرات الأنس وشرب البيرة والبوظة. يحافظ على هيبته كونه نجل شيخ خفر يبقى مرهوب الجانب لدى أرباب الغُرز وهلبية الورق، لا يتهتك معهم أو يسرف في الشراب، يتودد له لصوص البندر بشكل دائم؛ عساه يفلتهم لو وقعوا في خيبة الحكومة، مثلما أعان بعض أقرانهم من قبل.

تقرّب إلى السيد أحد اللصوص؛ بورمجي سابق نزح من القاهرة إلى الصعيد، بعدما غيّر نشاطه السابق؛ من سحب وانتقاء العاهرات في البنسيونات وبيوت بغاء الأزبكية، إلى السرقة، وصار من هلافيت لصوص البهائم. تعزف على ابن شيخ الخفر طامعًا في الحماية لما سمعه عن نفوذه. وبخبرته النجسة لمس فيه

maktabah.blogspot.com

الولع بالنساء فأغراه بزوجته «حكمت»؛ غازية الموالد البريمو. زيّنها إليه بلسان بورمجي متمرس، عدّد له أوصافها المثيرة وهو يمازجه بأكواب عرق البلح المعتّق : مَزة عفية، لينة الحوض، تُتقن عشرين وضعًا للمعاشرة، نظيفة ليست كغوازي الموالد القذرات؛ لا يسمح أبدًا بأن يطأها السناكيح، بل ينتقي لها - أمثال السيد - كبار العمد والبكوات. سال ريق السيد على «حكمت» من كلام زوجها عليها. بلا مواربة دعاه الرجل إلى بيته في البندر لقضاء ليلة معها، ورفض أن يقاوله عليها معتبرًا أن الليلة الأولى بلا مقابل، وعربون محبة بينهما!

في صالة البيت فاحت رائحة الشواء المجهز على شرف ابن شيخ الخفر، وأقبلت عليهما حكمت مسبوقة برنين الخلخال المعقود حول كاحلها المدملك : نصف فلّاحة، تتأوّد في جلباب محبوك يهتز فيه جسدها اللين. تبدّت في عين السيد أكثر إثارة من وصف زوجها : قمحية، مصبوبة القوام، عامرة الصدر لا تخرج أنفاسها إلا مصحوبة بتنهيدات غاوية، يندلع من عينيها الكحيلة فُجر القحاب، وفي غرفتها؛ هيأ زوجها الخلوة بذات رونق وطقوس بيوت بغاء القاهرة، ومن وراء الباب، لما همد صوت حكمت الصادح بشهوته مع السيد، جهّز لهما صينية العشاء، ودارورة عرق البلح الفاخر وعفر الجوزة بالحشيش، ثم خبط عليهما برفق، وترك اللوازم عند العتبة وانصرف.

وبعد النوبة الحامية الثانية - الطويلة - معها، سمع السيد صوت غريب في البيت غير زوجها، لما سألها سكتت، رأى في شرود عينيها النجلاوين حكاية عويصة، أصرّ أن يعرفها فلم تُجب، لما كش فيها، همست في حذر بأن : في الغرفة المجاورة رجل اسمه «عبد النبي» من مطاريد رزق شيخ المنسر كان قد عشق ابنة لأحد كبار تجار القطن في مديرية جرجا (سوهاج حاليًا)، امرأة لا مثيل لها، سمينة مثل قنطار القطن وفي بياض القشدة، فردة الثدي الواحدة أكبر من ثمرة القرع، هربت من أهلها معه بعدما جمعت مصاغها وألفين من الجنيهات الذهبية، ولما صعدت معه إلى الجبل تحالت في عين شيخ المنسر وطمع فيها، رجاة المطرود ترك مُهجة قلبه مَصانة له، سَبَهُ رزق وضاجعها أمامه بالقوة، استولى على مالها ومصاغها، كاد يقتله لولا هروبه، تاركًا محبوبته في حوزة رزق الجبار. المطرود الطافش صديق لزوجها، يشتري منه البهائم التي يسرقها المطاريد بنصف ثمنها، لاذ به مختبئًا في البيت من وجه الحكومة ورزق معًا منذ شهرين، أقام في الغرفة المجاورة نظير خمسين قرشًا يدفعها المطرود له يوميًا، ومطت شفتيها في امتعاض وهي تضيف أن الوغد يشتهيها، رفضت عرضًا منه على زوجها أن يضاف نصف جنيه آخر إلى تكلفة إقامته مقابل

مضاجعتها متى شاء. صبت للسيد كوبًا آخر من عرق البلح، وهي ترجوه ألا يُبلغ المركز عن المطرود؛ كي لا يُسجن زوجها لتستره على مجرم هارب. وعدها بشرط أن تُعرفه على ذلك المطرود الآن. وافقت وتزحزحت من جانبه في غنج، وقفت تستر شيئًا من غريها الكامل ومشت تتقصع إلى خارج الغرفة؛ لتعود إليه بزوجها والمطرود عبد النبي مغًا.

دعا السيد الجميع إلى مجلس الأنس، تودد إلى المطرود وحياه بلحسة أفيون من الصنف الغالي، ثم نفحه بقرش حشيش فردة كاملًا فوق أحجار الجوزة. تسلطنت دماغ المطرود واعتدل مزاجه، ناكشه السيد بود أنه يعرف حكايته؛ فارتبك، ولما أعطاه الأمان، انبرى يلعن «رزق» والمطاريد كلهم، حكى في أسى كيف أنه أخلص لرزق طيلة السنوات الماضية، ولولاه لقُبض عليه والمطاريد جميعًا منذ زمن، ولا أمكنهم بيع أو تصريف أي شيء من سرقاتهم، وأن الأنجاس أولاد الزواني بعد كل ذلك تنكروا له جميعًا.

في ذروة حقد عبد النبي على عشيرته أفصح له السيد - بما في نيته - أنه سوف يحشد رجالًا لمباغتتهم بهجوم مُسلح للقبض عليهم، أوجس المطرود يحذره من عدم قدرته على فعلها؛ رزق منجوس ابن شياطين، إبليس بذات نفسه زنى بأمه، فولدته عفريتًا شقيًا يفوت في الحديد، والمطاريد مثل الضباع النفر منهم بمقام عشرة رجال، وإزاء إصرار السيد نصحه بسرية الهجوم إذا أراد له النجاح، بالذات بدون علم المركز؛ لوجود جواسيس كُثر للمطاريد من بين خفراء الدرك والأونباشية، يُسربون إلى رزق أخبار المركز أولًا بأول، وقبل المداهمات يطلعوهم على موعدها وخط سيرها، ليحتاطوا ويَعُدوا العدة، بل وصل الحال أن كان لرزق علاقة وثيقة بحكمدار سابق للمديرية، يَمده بالمال والأفيون النقي، نظير وعده بتقليل الحملات وجعلها شكلية، ومن ثم عدم تعقُب المسروقات حال إعادة بيعها في الأسواق.

تعهد السيد للمطرود بالأمان من جهة الحكومة، وتخليص رقبته من بندقية رزق، وفوق ذلك كله غازل مشاعره بأن يرد محبوبته إليه، مزودة بكامل مصاغها ومالها إذا تعاون معه. هاجت عواطفه لما جاءت سيرة عشيقته أسيرة الجبل؛ فأخذ يحدد للسيد مواضع تمركزهم بدقة ويدله على مخابئهم الخفية، كشف له الأماكن التي قد يَغفلون فيها عن المراقبة، ومنها يمكن تطويقهم بسهولة. قرفص على الأرض بحماس يرسم على التراب بأنامله خطة لا تخُر المياه؛ بدأها بعرض طريقة الالتفاف عليهم بعد اعتلاء الهضاب الخلفية للجبل، إذ يَسهل تسلقها فضلًا

maktabah.blogspot.com

عن استحالة تأمينها بشكل كامل أو إدراك الصاعد نحوهم، سيتفاجئ المرابطون منهم لما ينقض عليهم من الخلف. السيد يطالع المطرود بعين الحذر ويتحرى صدق نواياه من تعابير وجهه، لربما يغدر به - مثل سلو المطارد - ويسلمه إلى رزق لقمة طرية، لكنه وثق فيه بعدما قرأ في عينه الزائغة لوعة العشق وأتون الانتقام؛ قرر السيد تنفيذ خطته المتينة بحذافيرها.

***

.. اهتداءً بإرشادات المطرود، جهّز السيد حملة ضمت خمسين رجلًا؛ انتقاهم من الهجّامة والعصبجية - معارفه - ذوي البأس، زودهم ببنادق ومسدسات، وألحق بهم القادر على حمل السلاح من أبناء عمه السعداوية؛ حتى يُعتبر النصر- إذا تحقق - دفاعًا مشروعًا من آل سعد الله وحدهم عن النجع، ولا يُوصم بأنه صراع بين اللصوص.

وفي الدقائق الفاصلة بين آخر الليل وطلوع الفجر؛ بدأ الهجوم : تقدّم السيد الرجال كالهجمة، مُحزمًا بأشرطة الذخيرة، اقتحم عرين المطارد بشجاعة نادرة ومن ورائه باقي الرجال المسلحين، أعمل فيهم المدفع الرشاش كقتال قُتلى عتيد، أردى أغلبهم جثثًا مُغربلة بالرصاص. سبي رزق حيًا ومعه بعض رجاله؛ ليُحاكموا، ويكونوا أمام الحكومة - والزمن - شهداء على بطولته النادرة. أباح السيد لمعاونيه أموال وعتاد المطارد كاملة كمكافأة لهم؛ ليختفوا من الجبل فور الاستيلاء عليها - حسب اتفاقه معهم - كفص ملح وذاب، فيما خصّ نفسه بشيخ المنسر رزق؛ خلع ملابسه، ونزل به من وراء أستار الجبل ذليلًا ولم يَبقَ على مسرح البطولة سوى السيد والسعداوية.

احتلّ السيد مقدمة الموكب المظفر عملاقًا يسدّ عين الشمس، دخل النجع في زهوة الفاتحين؛ ليرى الأهالي رزق الجبار عاريًا كما ولدته أمه، يرتعد بذكر كامش كالأرنب المذعور في قبضة السيد الرهيبة. السعداوية المسلحون يتراكضون حول الجثث المحملة كالشكائر فوق ظهور البغال والحمير. أما من بقي حيًا من فلول المطارد، شُوهد مربوطًا مدحورًا يتكحرت تحت نعال آل سعد الله!

غمرت السعادة بيوت النجع، استبشروا خيرًا بزوال غُمة المطارد، وحلفوا بحياة السيد، يباركون نسل الشيخ سعد الله أجمعين. ذاع الخبر في نواحي المديرية فابتهج الخلق، وحاول مأمور المركز التمحك في النصر المُبين، وإلصاق الفضل بنفسه، لكن السيد احتاط مُسبقًا من الورطة المحتملة، إذ جهّز خط سير

makrabah.blogspot.com

الحملة : أن يسوق رهائنه - رزق ورجاله - إلى داره بدلًا من المركز واحتجازهم داخله، أوثقهم بالحبال على جذوع النخل، وأباحهم للأهالي ليشفوا غليلهم؛ اندفعوا يلينسوهم بالطين وروث البهائم، جذبوا شواربهم المفتولة حتى ارتخت وحلقوا أنصافها، بصقوا في وجوههم ودفسوا العصي في أدبارهم.

على الفور؛ انتقل لدوار السيد مدير المديرية بنفسه يصحب الحكمدار ومعه ضباط البوليس، سلموا رزق ورجاله إلى النيابة بإشراف السيد، ووقع على محضر الضبط. حكت الجرائد أيامًا متوالية عن نهاية أسطورة مطاريد الجبل، وبطولة شيخ الخفر محمود سعد الله، وعن ولده العترة السيد سعد الله.

.. تزامن وهج بطولة السيد، مع زيارة مفاجئة للخديو عباس حلمي الثاني - قبل عزله بعام - إلى المديرية. كان متجهًا لأسوان فوق ظهر يخته «نعمة الله» في رحلة شتوية، لمتابعة عمل الخزان الجديد (خزان أسوان) بعد التعلية، انغرز رفاس اليخت في الطمي لانخفاض منسوب النيل قبيل الفيضان؛ فتهادى داخل زمام المديرية، أرساه الربان في رحاب السرادق الكبير الممدود مسبقًا، احتفاءً بالمرور الكريم لأفندينا. تسابق مدير المديرية والحكمدار إلى اليخت، متبوعين بالباشوات وكبار الأعيان. لم يهتم الخديو بهم كثيرًا، ولا بالباشا الذي نحر ألفي خروف، ورضهم بطول ضفتي النيل حيث يفر مولانا، قدر ما اهتم بحادثة الصعيد الأشهر؛ القبض على المطاريد. سأل كبير الياوران :

- أليست هذه بلد المطاريد ؟

- ذاكرة مولانا حديدية..

لمعت عينا الخديو :

- أين الشجعان اللذين قبضوا عليهم.. أريد مقابلتهما..

جيء فورًا بمحمود سعد الله - شيخ الخفر- وولده السيد لأجل المقابلة السامية. دخلا مجلس «أفندينا» ليجداه أبهى رونقًا من ما يظهر في الصور: شابٌ فتي بشاربه المسنون وطربوشه القاني الطويل، شامخًا في بدلة التشريفة الخديوية، محاطًا بحاشية فخيمة تتزلف له، وتترقب رد فعله جلالته مع هذين الفلاحين الجلفين أرباب الزرائب، اللذين من دون بر الصعيد كله تذكرهما خديو مصر وحاكم السودان. أشار الخديو لهما أن يتقدما ناحيته؛ دنا الشيخ محمود سعد الله من الخديو في ارتعادة رجل أقصى أحلامه مصافحة مأمور المركز

maktabah.blogspot.com

وانحنى يقبل يد الخديو مرتعشًا حتى كاد يمس حذاءه بجبهته، تقدم بعده السيد يقبل يده، لكن في ثقة وتماسك، لا يستشعرهما الخديو- النابه - في كثير من الباشوات والحاشية المقربة له، فالتفت إليه باهتمام وأطال فيه النظر تبدى له البأس وقوة الشكيمة المرسومين على وجهه. قال لكبير الياوران بصوت مسموع وهو يشير لهما :

- لو كان مع والدنا الخديو المعظم توفيق باشا عشرة من أمثال هذين المخلصين الأقوياء ما قام عرابي باشا بتمرده علينا.

أمر الخديو كبير الياوران أن يصرف لهما مكافأة ألف جنيه من أموال الخاصة الخديوية، وبإعفائهما من أداء الضرائب لمدة عامين. ثم تحوّل إليهما موجهًا كلامه للأب - باعتباره الأكبر سنًا - ملتبسًا عليه صفته ووظيفته الرسمية كشيخ لخفرالنجع :

- عفارم عليك يا عمدة.. مسرورون بشجاعتك وشجاعة ولدك.

كلمة أفندينا الخديوي المعظم، لا ترد أو تُخطئ مقصدها أبدًا، فلو قال للشيخ محمود سعد الله «باشا» لصار باشا حالًا. بلا تردّد قرّر الحكمدار عزل العمدة القديم، وأصدر قرارًا بتعيين محمود سعد الله عمدةً للنجع، والسيد ابنه شيخًا للخفر أشار عليه أحد الباشوات المقربين لمدير المديرية بأن يتسمى النجع على اسم عائلة العمدة الجديد؛ فمن المؤكد أن أفندينا في عودته من الرحلة الجنوبية سيسأل عن النجع مرة أخرى؛ فيسرّ جلالته بمثل تلك المبادرة ناحية العمدة الشجاع؛ فأصدر الحكمدار مرسومًا استثنائيًا بتغيير اسم النجع إلى «نجع السعداوية».

سقط العمدة المعزول مغشيًا عليه لما عَلِمَ بقرار عزله. مات قهرًا في اليوم الذي جاء فيه مندوب المديرية، لنقل غرفة تليفون العمودية من بيته إلى بيت ابن أخته الشيخ محمود سعد الله. العمدة الجديد لم يهنأ بمنصبه طويلًا، توفي بعد عام، فأمسك من بعده العمودية «السيد» الابن القوي، لمدة اتصلت ثلاثين عامًا انتهت بوفاته.

استهلّ العمدة السيد عهده بسحق أخوال أبيه - آل العمدة القديم؛ باعتبارهم العقبة المحتملة في طريق انفراده بالسيطرة على النجع، ظل يناكفهم في لدد عنيف، تعنّت أبناء العمدة الراحل وهجّج أحفاده من النجع واحدًا تلو الآخر قضى على أي أثر أو ذكرى لهم : أورث نفسه أملاكهم المتروكة، هدم بيت العمدة

maktabah.blogspot.com

القديم، أقام على أنقاضه وابوزا للطحين وقنطرة، أبقى على المندرة ليجعل منها إسطبلا للبهائم، وحرم تسمية المواليد بأسمائهم. صادق الإنجليز بحرص أيام الخديوية، في الحرب العالمية الأولى لما عزلوا الخديو عباس حلمي الثاني؛ أدرك انفرادهم التام بالحكم، وطد علاقته بهم - من خلال مستر هاريس - لأقصى درجة وقت المجهود الحربي، بعدما تطوع وبنى لهم الكامب في النجع.

ثبت أقدامه مع السلطة، واستدار يبطش بالنجع بقسوة، حكمة بالحديد والنار وزع الفقر على الجميع، فلم يسمح لأي نفر أن يجمع مالا أو يملك حيازة زراعية معتبرة، زكل جميع عائلات النجع خارج أي مسئولية حكومية مهما كانت صغيرة، بعدما كانت توزع بينهم أنصابا متساوية، اتخذ - سواء بالتعيين والوساطة - من أبناء عمه : شيخ الخفر وشيخ البلد، والمأذون، ومسئول الري، الدفكشي (مسئول السلاح بالمركز). لأفضلية السيد عند برهان باشا؛ نائب الدائرة ومالك التفتيش واسع الزمام، توسط عنده لابن عمه أن يلحقه بالعمل عنده في التفتيش (الأبعدية)، خاصة أنه يجيد القراءة والكتابة؛ فعينه الباشا - إكراما لقدر العمدة السيد - ناظرا على التفتيش المملوك له بزمامه المترامي، فدادينه التسعة آلاف الخيل ترمح فيه يومين ولا تبلغ آخرها؛ فصار السيد - في صورة ابن عمه ناظر التفتيش - المتحكم الفعلي في الأرض والأرزاق. كان وقتها للسعداوية من كبيرهم لصغيرهم - على قلة عددهم في النجع - هيبة وتقديم في كل شيء، فلا يسقي أي نفر في النجع غيطه، أو يأخذ حصته من التموين قبل اكتفاء كل فرد من السعداوية، ما جعلهم يقدسون كبيرهم الذي جعلهم فوق البشر!

* * *

.. حمل زين مثل سائر السعداوية إرث تقديس جده السيد، فجميع البشر عندهم يخطئ ويصيب، إلا العمدة الكبير لا يجانبه الصواب أبدا، منزه عن النقد والعيب. مواقفه وتصرفاته هي أماثل الأمور أما الزلات الإنسانية من سقطات ونزوات، فتُبرر- عن قناعة كاملة - أنها لغرض سام يصعب فهمه عليهم بأدمغتهم قاصرة التفكير. وفي عين الفتى اليافع تحصنت أسطورة السيد بعد وفاته؛ حين رأى في مندرة العمودية الملحقة بالدوار عصاه معلقة على الحائط فوقها صورته الكبيرة، تنحني من تحتهما الرقاب إجلالا، واحتل كرسيه منتصف ساحة الدوار كالضريح، لم يجرؤ أبدا أن يدخل غرفته - أو أي شخص - بعد وفاته رهبة منه فلا يدخل أي نفر غرفة العمدة بغير استئذان، وعندما يطرق الباب لن يرد عليه العمدة

maktabah.blogspot.com

المدفون في قبره، حتى صار هو الآخر يرتعد من جده المتوفى. وسمع من عجائز النجع أنهم لا يمرون أمام تعريشة العنب - المهجورة الآن - بغيط العمدة، حيث كان يجلس ساعة العصاري، ولو مر- مضطرًا - ينزل من فوق حماره، ويخلع مداسه؛ لربما خرج العمدة من قبره ويراه فيهب عيشته!

*****

3

نجع السعداوية - سابقًا

لم يعاصر زين عهد جده العمدة السيد بوعي كامل، يوم وفاته كان ابن أربعة أعوام، ولما شب صبيًا يافعًا سمع سيرته من السعداوية ما حقن وجدانه فخرًا، تتلون وجوههم أمامه بالتهيب وهم يشيدون له بجدوى سياسته القاسية في إخضاع النجع، وأخذه للأهالي بالشدة المفرطة، يشيرون له ناحية ركن في جانب الدوار بمزيج من الاعتزاز والحسرة يخبرونه بأن : الفلكة كانت منصوبة هنا قبل أن يفكها العمدة حسن نبذًا للضرب، لا يفر يوم إلا ويشعبط فيها الخفر رجل أذنب - والذنب يقدره العمدة وحده - ليظل يصرخ كالحريم من لسوعة جريد النخل، أو فرقعة الكرباج السوداني.

الرجل يفضل الذهاب للمركز بخاطره، ويعترف بجريمة لم يقترفها ولأجلها يُسجن، أهون عليه من رؤية عتبة باب دوار العمدة السيد. أما الآن فتبدل الحال في نظرهم؛ منذ وفاة العمدة السيد، وإمساك ولده البكري حسن زمام العمودية، خسر السعداوية ميزة تلو الأخرى؛ خرج من احتكارهم مشيختا البلد والخفر وبعدهما تكليف المأذونية، انتهاء بعزل العمدة. ينعون على العمدة حسن طيبته في التعامل مع الناس، أو بالأحرى ضعفه، يستحون قولها صراحة، لكنهم يدسون اعتراضاتهم في طيات كلامهم معه «النجع لو مخافش ما يتلمش يا عمدة.. أهله صنف خسيس يلمه صفارة وتفرقه عصاية».

يظل زين يرثي أيام الجد القوي، لائمًا على الأب تساهله مع أهل النجع، ولما عتب عليه يومًا رد بنفاد صبر«أما تبقى إنت العمدة إعمل ما بدالك». كبرت كلمة أبوه في نفسه، وتهيأ لأن يصير هو العمدة، الأمر الناهي في النجع، ولكن على طريقة جده السيد. تقمص دوره المرتقب وتشبه بصورة جده المعلقة في المندرة : ألبس نفسه جلاليب الكبار ولف العمامات الضخمة، استحث غزارة شاربه

maktabah.blogspot.com

ليبرمه، تصنّع الرصانة مترفعًا على أقرانه من الصبية؛ لا يلعب معهم أو يخالطهم، باعتباره العمدة القادم فلا يليق به مخالطة الرعاع أبناء النجع؛ فذويهم إما علّقهم جده السيد على الفلكة، أو كانوا خدمًا في الدوّار!

***

.. على عجرفة زين وتعاليه الدائم على صبية النجع، لا ينس ما طاله أيام المدرسة الإلزامية في البندر من التلاميذ البحراوية - زملائه- أبناء كبار الموظفين المنقولين من وجه بحري للعمل في الصعيد، حينما كانوا يتخذون لأنفسهم ركنًا في الفصل المدرسي، ينعزلون فيه وحدهم بعيدًا عنه وعن سائر التلاميذ القرويين أقرانه، وكلما مال بسمعهِ إليهم وجدهم يتكلمون عن القاهرة ومغامراتهم فيها، ولا يخل حديثهم الفترف من وصف معاناتهم في ذلك الريف الكئيب المقرف، والممل بكل ما فيه. حاول التقرب منهم ولكنه عاد وتجنبهم؛ لما شافهم يعاملون القرويين - أبناء أعيان الريف مثله - بتأفف، أما من يقربونه منهم فيعامل عن بُعد قرفًا منه، ثم يتخذونه مادة خصبة للسخرية لجلافته، والتندر على لهجته الصعيدية وسذاجة تصرفاته. ويوم تجرأ وحشر نفسه بينهم، ذبحته الإهانة الفادحة حين قالوا له باشمئزاز إن : أمهاتهم أمرتهم ألا يخالطوا أمثاله، لأنهم محملين بالبراغيث والبق، وسبب عدوى صئبان القمل في شعورهم. وذات صباح حام حول بنت - بحراوية - أعجبته في حوش المدرسة، فإذا بها ترتد عنه خطوة للوراء كان قد اقتربها منها، رددت وهي تسد أنفها الجميل أنها حين استفسرت من أمها عن سبب رائحة التلاميذ - القرويين مثله - الكريهة، أخبرتها أنها رائحة القرى القادمين منها، المشبعة بغبار حريق البوص وروث البهائم، ثم سألته في تقزُّز عن حقيقة تعايش الجاموس والحمير معهم في ذات مكان الإقامة والنوم.

صار زين شابًا، وازداد شغفه بجمال بنات البندر ورغبته الحقيقية في التقرّب منهن على نبذهن القديم له، فلا يكف عن التطلع إليهن بإعجاب وتهيّب كلما صادفهن في البندر. ومع الوقت توقدت فيه رغبة قوية لارتياد عالم البندريات الراقيات، والإنصات إلى أصواتهن الناعمة، وتأمل جمال ملابسهن وتمنى تشمُّم رائحة لحمهن المعطر وفي ذات الوقت لم ينعتق من شعور يكره بالانكسار تجاه مقامهن الكبير يعتبر خشية الاقتراب منهن نقيصة في حقه، ولا ينكر لحظتها شعورًا راسخًا في قرارة نفسه بيقين، بأنه لو واربت أي بندرية له الباب سيلجه كالفأر صاغرًا متلهفًا. أحقاده عليهن غائرة وفي ثورة لا تنتهي، تضطرم حبيسة

maktabbah.blogspot.com

في أعماقه ومكبوتة، ينفث أبخرتها في حديث مع بعض الرفاق ممن طافوا المدن والبنادر يعملون أو يتاجرون. لا يجتمع مجلسهم إلا ويتحدث كل واحد - بتشفٍ - عن الرجال البحراوية بذكورهم الصغيرة، وانحراف نسائهم وبغايتهن، يسردون عنهن حكايات جنسية وبطولات سريرية، تبدو كمبالغات غير معقولة، لكنها تجد في نفسه - ونفس السامعين - ميلا وتصديقا؛ فالأصل أن المتكلم يجب أن يحظى بانبهار وتصديق السامعين، ولا يُكذب أي منهم - وإلا يُكذب الكل - ولو ادعى مضاجعة إحدى الأميرات، أو وطئ الملكة الأم بذات نفسها!

يبدأ الواحد منهم كلامه المرسل عبر حديث فج، وبافتعال حركة - تبدو عفوية - ليكشف للمستمعين من وراء الكلسون عن التكور الضخم الرابض بين رجليه؛ كتمهيد مُقنع لحديثه التالي، وتأكيد للسامعين على عافيته الجنسية. يخرج الصوت خفيضًا بنبرة متخابثة ساخرة، ومنفوحة بفخر الفحولة، وأما المضمون فيُستهلك فيما بينهم أن : نسوان البندر البحراويات جميعهن منحرفات وغير مختونات، يجري العهر متعتقًا في دمائهن الساخنة، يتحرقن للمضاجعة من فرط الحرمان، إذ لا تسعفهن ذكور أزواجهن المرتخية. يصطدن الرجال الصعايدة الصناديد. الواحدة منهن تحلّ من على حبل المشنقة، على عجرفتها تبدو هانم أو تحسبها برنسيسة، وفي الفراش عاهرة محترفة.

وعلى هامش السيرة الفاحشة لا يمرّ الحديث كل مرة، إلا ويشعر زين بالفخر؛ إذ تأتي بمناسبته دائمًا الحكاية القديمة والأثيرة عند الكافة؛ بين عمه حسانين والخواجاية «كارمن» ابنة «هاريس» الضابط الإنجليزي، كمضرب للمثل على الفحولة الصعيدية وتفرّدها. العلاقة الحميمة بينهما معروفة ومؤكدة لدى أهالي النجع، امتد صيتها لسائر القرى والمراكز المجاورة، يحكيها الأبناء كما سمعوها من آبائهم كمدعاة للاعتزاز بالعرق الصعيدي نادر الوجود.«الخواجاية كارمن» وقتما كانت تعيش في النجع مع أبيها، بكل قدرها وجمالها الأوربي، واحتقار أبيها لهم وقسوته معهم، عشقت شابًا منهم بجنون؛ حسانين ذلك الفحل الصعيدي وابن عمدتهم؛ نامت تحته - الصعيدي - بخاطرها ليهزك جسدها الأبيض الجائع بشهوته وجنون رغباته. الأهالي شاهدوهما مقا عند أطراف القرية، ووراء الساقية يتناجيان، تجلس أمامه بجسدها الممشوق البرّاق بلا خجل - ممن وهبته جسدها - وتلبس له فستانًا فاضحًا : بالكاد يستر حلمتي صدرها المحندق كحبتي رمان، ويُغري ظهرها البلوري، ينطلق منه فخذاها الرشيقتان شاهقي البياض!

maktabbah.blogspot.com

تروي الحكاية القديمة أنهما - حسانين وكارمن - اعتادا الذهاب مغا إلى البندر قبل المغرب، يعودان منه وحدهما ليلا، يحملها إلى الكامب سكرانة بين أحضانه. شافوها تنتحب بحرقة عندما غادرت النجع مع أبيها إلى القاهرة بلا عودة؛ لم يشك أحدهم في أن فراق حسانين سبب حزنها. الخواجاية كارمن؛ مثل قومها لا تجد غضاضة أن تمنح نفسها لأي رجل طالما أعجبها بدون زواج، حسانين القوي الفحل راق لها، وضاجعها بمهارة أدمنتها، أطعمها ما لم تجده عند بني قومها - من الإنجليز ذوي الدم البارد، كانت تأتي إليه كل إجازة سعيا من آخر الدنيا، اشتياقا لدفقاته الحارة، تصهر ما اختزنه جسدها من برودة بلاد الإنجليز!

***

.. وبعد الثورة دخل زين في موجة نضال جديدة مع نفسه؛ حينما تلاشت آماله العريضة في العمودية، بعدما ألصق به - والسعداوية جميعا - في مواجهة الحكومة الجديدة وصمة «أذناب العهد البائد»؛ اللقب ليس كفيلا بإقصائه من العمودية فحسب، بل إلقائه في السجن معتقلا بتهمة لا دليل عليها. بذات قدر إحباطه اتقدت جمرة شبابه تلهب رغباته، وانفردت فاطمة بأحلامه الماجنة. لم يعد يراها تلك الطفلة المقرفة خادمة الدوار إنما تفاجأ بها هبت صبية يافعة متكورة الأرداف. أعجبه وجهها القمحي المسمسم، المزدان بغمازة الخد الأسيل، وأما ظهور آثار نعمة زراعة أرض الإصلاح عليها أنساه أنها ابنة مغاوري.

تمر فاطمة أمامه في رحلتها اليومية، تمشي من بيتها - المجاور لدوار العمدة - إلى الترعة، تذب الأرض بساقيها الملفوفتين، تسحب خلفها الجاموسة التي تكاد تناهزها طولا وعرضا، نظراتها الساذجة صوب الفراغ تثيرة رغم براءتها. الظهر الأنثوي المفرود يتمايل أمامه متكئا على الخصر المنحوت؛ فيندفع وراءها متخفيا، يزدرد ريق الشبق، يرقبها من بعيد بعين جائعة : تنزل بالبهيمة إلى الترعة لتمكنها من الشرب والاستحمام، الماء يتماوج حول الجسد الفاره، يُلصق الجلباب الرهيف على لحم الثدي القوي، ويرسم استدارة الفخذين الشامختين. الفري المستتر وراء القماش المبلول، ينقلب إلى مشهد غاو، ينتظره كل يوم.

أما فاطمة - على سذاجتها - لم تكن غافلة عن مطاردة زين الخفية لها. كذبت نفسها في البداية؛ لم تتخيل أبدا أن ابن العمدة قد يرغب مثلها. تأكد لها غايته منها بمداومته التلصص عليها في الترعة، طارت فرحا باحتمال تحقق حلمها القديم بعيد المنال؛ أن يحس بمشاعرها يوما، أحبته ببراءة منذ طفولتها، وحين شبت صبية تمنته زوجا تنجب له أطفالا، تذكرته أيام خدمتها في دوار العمدة،

maktabah.blogspot.com

يمرُّ أمامها وهي تكنس وتمسح الأرض، لا يعرها أي انتباه كأنها نفاية بشرية. تراه صبيًا وسيمًا، مختالًا بعصاه المعقوفة، تلف بين أنامله مسبحة عقيق، أبهرها برزانته، وهيئته الفخمة الشبيهة بكبار الرجال.

عاشت معه في خيالها حياة كاملة بمشاعر مكبوتة؛ تتخيل نفسها تعاتبه عتاب العشاق كونه غاب أيامًا ولا تعرف عنه شيئًا، أو تخاصمه لأنه لم يسأل عنها وهي محمومة. غيبها عن الوجدان ملمس يده الناعمة - التي لم تلمس طين الأرض أبدًا - حين سلَّم عليها بعطف، ودسَّ في يدها قرشًا على سبيل الصدقة، وأبكتها أيامًا نظرة متقززة منه، حال افتراشها الأرض، تفرد جلبابها وتأكل فوقه المش والبصل.

يوم أدركته يتعقبها - كعادته - وهي ذاهبة لتحش البرسيم من الغيط، صعدت من جرف الغيط تتأود ومقطف البرسيم متزن فوق رأسها، وبدلًا من العودة إلى بيتها، استدارت بخطى عكسية سريعة للشجرة الواقف خلفها، لثباغته بعينين جريئتين. أخذته المفاجأة ووقف يتلفت حوله في قلق. اقتربت منه خطوة، صامتة، ابتسمت؛ تستحثه بدء الكلام. دعاها باقتضاب إلى مقابلته بعد الغروب داخل حديقة سراي برهان باشا المهجورة، وانصرف. تكحلت، وفي الموعد هرولت إليه تحدوها دقات قلبها!

تقابلا أمام السراي، يلفهما صمت مشحون بالترقب، عبرا السور المتهدم يطرقان أطلال الحديقة اليابسة، وأسفل شجرة جوافة ذابلة - اعتاداها مجلسًا لهما فيما بعد - قرفصت أمامه إجلالًا، أخذ يدها سامحًا لها بالجلوس جانبه. ضوء القمر يسقط فوق الفرندات المغلقة، وينسلّ متعرجًا بين الأبراج الخربة، فيبسط علمهما ظلالٍ عملاقة تحجبهما. راحا يتناجيان، ويتكاشفان، ويبوحان. احتضنها وتعانقت الشفتان؛ وطوى العشق قلبيهما.

وفي ذروة مشاعر الحب بينهما، لم يتخلّ كلاهما عن وضعه أو ينسى أصله. يعاملها دومًا - بقصد وبدون - أنها أقل منه، بينما ارتضت هي صلافته وتعاليه الدائم عليها، بل بجلّته لمنزلته الرفيعة في نفسها وقلبها. تلاحمت علاقتهما لأن كلاهما يحتاج إلى الآخر؛ زين يفتقد التوقير ولو استحلبه من صبية صغيرة مثلها، تمنحه شعورًا باحترام فائق محببًا إلى نفسه، يتيه نشوةً حين تخاطب آماله الضائعة فلا تناديه إلا «يا عمدة»، أما هي تدرك أنه مهما حدث من تغيُّر في الأوضاع بعد الثورة - وعلى مقت أبيها له وأهله - يبقى ابن العمدة سليل السعداوية، حفيد العمدة السيد الكبير ووذت لو جاهرت بانتصارها - الاجتماعي

والعاطفي - إلى جميع فتيات النجع!

مرّت أسابيع على مقابلات الحديقة؛ ولم تفد تشيع أنين أجسادهما الهائجة القُبل القلقة ولا الأحضان المهدّدة بالافتضاح؛ تسلّل بها إلى زريبة الدوار أغلق الباب واختليا ببعضهما. في العتمة لمعت له عيناها السمراوان تدعوه بإلحاح الأنثى الفاهمة بالفطرة، تمدّد الجسد الثقيل يتعرى له مستسلمًا، وتحت وطأته طقطقت أكوام البوص الجاف. جذبته فوقها بشوق؛ أحسّ بلدونة اللحم السخي الحار وشعر بيديها الخشنتين تنفردان فوق ظهره. التقم حلمتها المحتشدة، ليختلط في أنفه رحيق الجسد الأنثوي المسكر ببقايا الحليب المتخثر من حلبها للجاموسة، مع زناخة رذاذ الروث اللابدة عليها وفي حركتها المجنونة شبقًا صعودًا وهبوطًا، تخمش تشققات كعبيها الغائرة جلد ظهره الناعم!

على شح نظافتها لم يزهدها؛ إنما تحققت في عينيه أنثى مكتملة، تشبعه وتهدئ وخزات شهوته بعلاقة كاملة. أما هي فلم تحزن على فقدها لعذريتها؛ زين حبيبها من سلبها إياها، بل وهو فوقها تتشبث به، لا تصدّق أن ابن العمدة يركبها ويغيّب فيها قضيبًا سعداويًا. بين الآن والآخر؛ تؤكد لنفسها أنه سيتزوجها، رفضت أن تسأله عن مصير علاقتهما المجهول ودفنت القلق في أعماقها؛ خشية أن يهدم أمانيها ويفاجئها بالرفض الزاجر ثم ينكرها ويهجرها!

علاقتهما ظلت في تصاعد حسي مستمر حتى تصدعت لما تصادم زين مع شقيقها؛ يوم مرّ أمام دوار العمدة، ولم ينزل أمامه من فوق الحمار احترامًا، ثارت حفيظة - العمدة الصغير- زين وأخذته حمية الماضي. سحل الشاب، وكلّف الغفير بربطه في نفس مكان الفلكة القديم، ومظّهُ بالخزرانة بمنتهى القسوة. لم تمر الحادثة مرور الكرام، أو تنتهي باعتذار المعتدي عن فعلته الحمقاء كأيام العمدة السيد، بل هدّد مغاوري بتحرير محضر ضد زين في المركز وشكاية العمدة في لجنة الشياخات والعمد بالمديرية؛ أدرك العمدة تبعات الشكاوي سريعًا، فبادر يعتذر لمغاوري وقبّل رأسه أمام الناس.

انتشت فاطمة لجسارة أبيها، وانتفاضه لاسترداد حق أخيها. لأول مرة لم تشعر بالدونية تجاه زين، لكنها كتمت هذا الإحساس الجديد بالندية وتجاهلته، بل وجاهدت تشكمه داخلها، ليظل زين في نظرها كما هو؛ ابن العمدة بكامل جلاله وصورته ورونقه. في الزريبة قابلته اليوم التالي، وجدته متجهمًا مطأطئ الرأس، افتعلت خضوعًا جديدًا لعلّهُ يداوي كرامته الكسيرة، قرفصت تحت قدميه، متحجّجة أمامه أنها تمسح له البلغة من روث عالق بها، ولم يشف تذللها غليل

صدره. فأفرغ شحنات غضبه - من طبقتها المتنامية - بأن وطأها بعنف وقسوة حتى أوجعها كأنه يعاقبها!

***

بعد اعتذار العمدة لمغاوري؛ طفح الكيل عند السعداوية من خنوع كبيرهم؛ فترامت إليه زفرات الغضب، وتجزأ لسان الصمت ناطقًا بخيبة الأمل. خرج العمدة حسن عن صمته لأول مرة، جمع السعداوية في الدوار وأفهمهم أن من يده في الماء ليس كمن يده في النار؛ فتاريخ السعداوية مع حكومات القصر المتتالية، وعلاقتهم المعروفة بالإنجليز لم يغض الطرف عنها في العهد الجديد. المسئولون الجدد يشكّون في صدق ولائه، بأثر الوشايات المتتابعة في حقه من جانب أنذال النجع.

لا زال عندهم موضع تخوين وريبة على الرغم من إخفائه لصورة الملك فاروق بعد خلعه، ورفعه لصورة اللواء «محمد نجيب» بدلًا منها، ثم إنزالها أيضًا بعد إقصائه، ليضع أكبر صورتين ممكنتين للرئيس جمال عبد الناصر بالدوار؛ واحدة بالميري، تقابلها أخرى بالبدلة المدنية. ثم يقلّب يديه في قلة حيلة مرددًا بصوت كسير «طول عمرنا وإحنا خدامين الحكومة وهنفضل كده ليوم الدين.. حطوها حلقة في ودانكم.. الفلاح من غير الحكومة يموت.. ماحيلتناش غير نقول حاضر ونعم»، ثم انبرى ينعي على الحكومة تعنتها معه، أنها تسمع من الناس بآذانٍ متربصة، ثم تُغنفه بقسوة وتحفز مثل الأب الذي تبرأ من ولده!

العمودية أيام الضباط، باتت سببًا لقلة القيمة أكثر منها جاهًا، رغم ذلك لا يهون عليه التخلص منها. أيام العمدة السيد، كان أهل النجع يدينون بالولاء الفطري للحكومة، والممثلة في شخص العمدة وحده. وقتها اعتبر الجميع أن الله في السماء والعمدة على الأرض، أما الآن؛ فذلك الصندوق الملعون أس البلاوي المسمى «راديو»؛ يذيع ليل نهار أن الحكومة بقُدرة قادر باتت صديقة الفلاح.

وفي الجرائد يظهر«عبد الناصر» واقفًا كالنخلة، بابتسامته العريضة يُسلم عقود فدادين الإصلاح عليهم بذات نفسه، يزدد بملء صدره العريض وهو يشرب من القُلة « ارفع رأسك يا أخي فقد ولّى زمن الاستعباد»؛ فاعوجت الأعناق، وتفتحت العيون، وتمردت الأدمغة، اختفت كتّاب تحفيظ القرآن ثم أصبحت أضحوكة لمن يرتادها، بعدما كان لا يغتبها غير القادر على تعكيم شيخة بالقروش الصحيحة اللامعة، ولا سيما تعمير الصواني النحاسية بالمرقة والفطير

ولا يعترف بها إذا خلت من هبزة الزفر وبدلًا منها أنشأت حكومة الثورة على أرض تفتيش برهان باشا - بعدما صادرته - مدرسة مجانية باسمها «مدرسة الثورة»، جاهد العمدة السيد طويلًا في الماضي؛ ألا يبنى مثلها في النجع كان يقول «النجع لو بقي فيه خمسة أفندية يخرب».

أما الآن صار النجع كله أفندية؛ دخلت الكتب والأقلام والكراريس كل بيت، بعد أن كان غالبية النجع من الأميين والبصمجية، بمن فيهم العمدة ذاته، تعلّم أهل النجع طرق أبواب الوزارات، بل وصار منهم موظفون في دواوينها، وأصبح لكل عائلة كبيرها، هو في الواقع بمثابة عُمدتها المستقل، بعدما كان دوار العمدة هو نهاية المطاف!

امتعضت وجوه السعداوية في وجه كبيرهم، ولفظت أمارات عدم الاقتناع بكلامه، فقسا عليهم بالمزيد وعايرهم بأن : أكثرهم مُلطع على المقاهي مثل الذباب، لا هم من أصحاب الأطيان بعدما باعوا أرضهم لأجل الفشخرة الكذابة وأكل الأفيون، ولا هم من أهل العلم، الناصح فيهم يكتب اسمه بالعافية. وما يفوتهم أن عائلات النجع - التي لا زالوا يحقرون من شأنها - تفوّقت عليهم الآن بمراحل، نبت فيها المدرس، والمحامي، والتاجر والموظف. أما السعداوية فمحلك سر يعيشون على أطلال الماضي، كالأرامل يولولون على رحيل الأولين، لا سيرة لهم غير«كانوا.. وكنّا» والترخم على مجدٍ فات وانقضى أمره.

لم يلقَ كلام العمدة في أنفسهم - وأولهم زين - أي قبول، طوال الحديث يتأملون صورة الجد وتحتها العمدة وهو يتكلم، ويقارنون بينهما في أسى وخذلان. يرون أن حسانين شقيقه الأصغر كان الأحقّ بالفمودية منه؛ لأنه قوي ومرهوب الجانب من أيام أبيه. يقولون بأسى في الذكري السنوية لوفاة السيد أن «خبطتين في النافوخ توجع» فالأولى فاجعة وفاته، والثانية فرار حسانين من النجع، يوم جنازة أبيه إلى القاهرة بلا رجعة، بعد اتهامه وملاحقته بتهمة قتل الشيخ أبو الجود وولده، واستقراره في سوق روض الفرج، ولازالوا إلى الآن يأملون عودته، ويستجدونه لإمساكه بزمام الأمور بقبضة من حديد.

لما انفضّت الجلسة، تقيئوا كلام العمدة حسن، ليتغنوا بواقعة زين أيامًا طويلة، امتدحوا فيه سمات الهيبة، بأن فيه من هيئة جده وعمه الشاكمة الكثير: قامته المديدة، وجهه المشرب بحُمرة الصحة المكتملة. حطوا فيه الأمل صراحةً بأن يخلف أباه - بعد عُمر تظاهروا بالدعاء أن يكون طويلًا - ليعيد سيرة جده السيد

الكبير مرة أخرى

***

اعتبر أهل النجع أن اعتذار العمدة لمغاوري، وخوفه من الشكوى نهاية فعلة له؛ بل وطمع القفي بينهم أن يحل محله. وفي تلك الفترة، وقع خلاف بين عائلتين على حدٍ فاصل لأرضيهما المتجاورتين، وتفاقم بعدما سَبّ صبي صاحبه من العائلة الأخرى، عايرة بأن أهله أخذوا أرضهم منهم بالقوة؛ اعتقادًا من المأمور بمقدرة العمدة حسن على حل الأزمة - مثلما سمع عن أبيه - دون تدخل أمني من الحكمدارية؛ كلفه بحل الأزمة بين العائلتين المتخاصمتين، خشية اشتعال الخصومة الثأرية بينهما التي أخمدها العمدة السيد قبل عشرين عامًا بالقوة.

لم يجرؤ العمدة حسن مجادلة المأمور ليفهمه أنه ليس مثل أبيه، إنما يعجز عن تنفيذ تعلماته كما ينبغي. تنفيذًا لأمره دعا رجالًا يمثلون عائلتي الطرفين عساه ينهي النزاع، جاءوا إلى المندرة على مضض، وبدلًا من دخولهم إلى حرم الدوار خالعين النعال ومرهوبين كأسلافهم، تشاتموا غير مُبالين بوجود العمدة؛ وفي ذروة النقاش الذي لم يكن للعمدة حسن فيه أي دور سوى الفرجة، عاير رجل خصمه بتركه للثأر القديم بأمر العمدة السيد، فشدَّ عصا العمدة السيد المعلقة على الحائط، وهشمها - وهو يعلم أنها عصا السيد - فوق رأسه خصمه. هاج الجميع وتضاربوا بعنف، وأثناء القتال الغشيم كسروا دِكّك المندرة والزير ثم تراشقوا بالقُلل وخلعوا الباب. انتقلت عَركة النبابيت الحامية من دوّار العمودية إلى بيوتهم. آخر النهار؛ جاء رجُل من قدامى خدم الدوار إلى العمدة حسن، ممسكًا برأس عصا العمدة السيد المكسورة، ردد بتأسٍ مصطنع، تزغرد وراءه فرحة وشماتة «عصاية العمدة الكبير لقيتها مرمية في الخرارة.. قلت أجيبهالك».

وقع المأمور في مأزق مع الحكمدار بعدما كان قد تعهد له بالسيطرة على الموقف - من خلال العمدة - دون إمداد من المديرية التي سجلت تجدد بؤرة ثأرية، تحرج المديرية أمام وزير الداخلية. وفي اليوم التالي استدعى المأمور العمدة، عنفهُ بتوبيخ قاسٍ وشخط فيه: «أنا غلطان إني اعتمدت على عمدة خِرع زيك.. معدش ليك لازمة يا حسن.. النجع فلت من إيدك خلاص». قبل أن يطرده من المكتب، توعده بما لا يُحمد عقباه، وغلّظ قَسمه بخبطتين متتاليتين بكفه فوق رتبته الميري المعلقة على كتفه: «وحياة دول لأخلي كلاب النجع

أحسن منك.. وأقعدك في بيتك زي النسوان»!

صدق وعيد المأمور؛ بعد شهر تبلغ للعمدة رسميًا صدور قرارين من الحكمدار: أولهما إلغاء العمودية من النجع وإحلال نقطة بوليس محلها، والآخر تغيير اسم من «نجع السعداوية» إلى نجع «الشيخ أبو الجود». قابل زين الخبر بحسرة أن يتسمى النجع باسم خصمهم الأزلي، وفي ذهول تساءل: كيف لضابط صغير(رئيس النقطة) ومعه شاويش كركوبة، أن يكونا بديلين عن العمدة بجلالة قدره، وأن تهدم نقطة البوليس تاريخ السعداوية القديم في الضبط والربط.

«الحكومة رفتت العمدة».. لفّ الخبر النجع بين مصدّق راغبًا في التشفي. تأكد عزل العمدة بعد أيام قليلة، لما بدأ المقاول بناء مبنى نُقطة الشرطة على الأسفلت أمام مدخل النجع مباشرةً. تلقى الكثيرون النبأ بفرحة وشماتة، وبأحاديث لها صوت عالٍ «ده حق دم الشيخ أبو الجود.. وكل الحرام ماعيدومش.. لكل ظلم آخر ونهاية». جاء العيد كاشفًا للوضع المخزي، الدكك خاوية في المندرة، لم يأتِ أحد للمعايدة من أهل البلد على العمدة، وكذلك أحجم السعداوية عن المجيء إلا قليلًا. قبع الغمدة - المعزول - في الدوّار يرثي ما وصل إليه الحال، وقبع زين تحت صورة الجد منكفئًا على ذاته المتهدمة

*****

4

الجنازة

طال انتظار زين لعمهِ حسانين على المقهى، سأل الصبي :

- هو الغمدة حسانين ع ياجي الساعة كام؟

سأله باستغراب :

- مين العمدة حسانين ده يا بلدينا؟!

ردّ عليه زين في حذر متمنيًا ألّا يبدر منه ما عساه يمس قدر عمه الكبير عنده :

- صاحب العمارة اللي هناك..

أشار الصبي صوب وكالة قائمة في منتصف الشارع، وأجاب في إكبار:

- قصدك المعلم حسانين صاحب الوكالة.. زمانه جاي أصل مشواره بعيد من العباسية..

لم يَفهم سبب تسمية عمه حسانين بالمعلم، ولكنه استوعب أن لقب «المعَلم» هنا - بأي حال من الأحوال - أرقى من لقب العمدة؛ في ذلك البندر الخسيس يُهان جلال العمودية ولا يُعز أبدًا قدرها العالي، بل تلقى استخفافًا وربما ازدراءً. لكنه انتشى لرد فعل الصبي، التفت صوب إشارته. فرأى من بعيد الوكالة المقصودة؛ محل هو الأكبر بين محلات السوق، عامر بمشتات الخضروات الطازجة، وأقفاص الفاكهة مرتصة أشكالًا وألوانًا. تعج الوكالة بالزبائن، والعمال، وتجار التجزئة، كأنما انفرد عمه بقسمة الرزق وحدهُ، تتكالب في محيطه السيارات الفارهة، وشاحنات النقل العملاقة تسد الشارع.

قرأ زين اليافطة الضخمة «وكالة المعلم حسانين». لم يتحفظ على كلمة «المعلم حسانين»، قدر ما أزعجه عدم ذكر للسعداوية في اليافطة. كان يتعين علمه تدوينها «حسانين السعداوي أو حسانين أبو العمدة سعد الله». أقنع نفسه بأن : عمه حتمًا يخجل من حرفته الجديدة كمجرد بائع للخضار والفاكهة، لمَا انزلق به الأمر لتاجر بدلًا من عمدة مرموق؛ لم يُرد إقحام لقب العائلة داخل يافطة فوق محل، اسم السعداوية لا يُكتب إلا في سجلات العمودية، وتُزين به دفاتر تشريفات الحكمدارية، فلا يُزج به أبدًا بين التجار والباعة والصعاليك!

طلب كوب شاي آخر ورفع الشيشة من أمامه؛ تحسبًا لوصول العم المهيب في أي وقت، فلا يقع في محظور التدخين أمامه. حدّثَ نفسه أن يكون عمه حسانين قد مَرّ من أمامه ولم يعرفهُ؛ آخر مرة شاف عمه منذ ست سنوات، عندما جاء من القاهرة مسافرًا إلى النجع - في زيارة استغرقت بضع ساعات للمحاسبة على نصيبه من ريع الأرض. نفى ظنه مؤكدًا لنفسه أن عمه حسانين ليس بالشخص الذي يُنسى - أو يُلتبس علمه بآخر فيكفي أن يلمحه أي شخص لثانية واحدة، ليقبع في الذاكرة مدى الحياة. تذكّر اللحظات المؤثرة التي رأى عمه فيها خلال زيارته للنجع.

***

.. في نهار الزيارة؛ وقف زين أمام الدوار يُزاحم السعداوية، الوجوه مُشرقة، والبهجة تعم المكان. وصل الحنطور يُقل حسانين من المحطة، توقّف به أمام الحشد الكثيف. بمَدّة ساق واحدة نزل واقفًا عملاقًا كالجبل، أطول رجل أمامه

بالكاد يصل إلى صدره، يلتوي الحزم في وجهه الصارم، الجلباب يكاد يتفزر من على ذراعه العفي. تسمّر الجميع مكانهم لثوانٍ منبهرين، كأنّ الزمن توقف وارتد بهم صوب أيام السيد الكبير رمحوا نحوه شيوخًا ورجالًا وصبية؛ يتوسلون إليه بالبقاء وألّا يسافر، تعصر عيونهم الدموع العزيزة على كفه وهم يقبلونها، ترثي حالهم، وتشكو له في صمت أفاعيل شقيقه المتهاونة. في المقابل؛ انزعج أهل النجع لمجيء حسانين المفاجئ. مرّ علمهم اليوم عصيبًا، بعدما تسربت إشاعة أن : حسانين جاء ليتولى العمودية بدلًا من شقيقه. انتشر الصمت في الطرقات، الإبرة ترنّ لو ألقيت على الأرض. بدأ كل واحد يُراجع نفسه، فتّش في دفاتره عما قد يكون أساء به إلى العمدة حسن، ولو خطأ صغيرًا أو مجرد هفوة، ستبقى عسيرة الحساب عند حسانين الذي لا يرحم!

بعد أقل من ساعة، توافدت على الدوار رءوس جميع العائلات، كلّ متبوع بوفد غفير ولائق من عائلته، لم يتقاطروا بمثل ذلك الزخم منذ وفاة السيد؛ تسابقوا ليقدموا فروض الولاء والطاعة إلى حسانين العاتي. إذا ما اقترب منه أي نفر ليُسلم عليه يزدرد ريقه، ويتمتم قبلها بآيات قرآنية عساها تُبقيه على هدوئه، ولا يطبق في رقبته. الجميع يلتف حوله، وهو قاعد على كرسي أبيه وسط الدوار في شموخ، يصافحهم بحزم متعمدًا ألّا يقوم من مكانه، لو أطاقوا لقرفصوا تحت قدمه يقبلونها. بينما انتشر السعداوية في أرجاء الدوار برقاب مرفوعة، يفتلون شواربهم في زهو يتأملون حسانين في فخر كأنهم يروا العمدة السيد في زمانه. وفي المساء؛ عاد الحال على ما كان عليه بعد سفر حسانين، وسط ارتياح غمر أهل النجع، وأسف وحسرة من السعداوية.

* * *

.. حسانين؛ أو حسانين أبو العمدة - كما يُسمونه في النجع؛ لا يُمثل للسعداوية الابن الأصغر للعمدة السيد وحسب، بل - كانوا ولا زالوا - يعتقدون ويحلمون به خليفته المنتظر؛ نديده في المهارة والقوة، سبع الرجال، معجونًا بالدهاء والشدة، له تقدير كبير عند السعداوية وسائر محاسيبهم. يحظى بقبول واسع لدى المأمور وكبار رجال الإدارة، الحكمدار يعرفه شخصيًا، والجميع يخاطبونه مباشرة في شئون النجع باعتباره مسئولًا عنه. في حياة السيد كان الأقرب إليه، يلقى لديه استساغة وإعجاب واضح؛ لفتونته وشخصيته القوية، العمدة الأب بات يُفوضه في أواخر أيامه لإدارة شئون النجع؛ وكأنه يُجهزه لتولي مسئولية العمودية، متجاوزًا بذلك التقاليد والأعراف، أن يخلفه الابن الأصغر بدلًا من

البكري حسن، وارتضى حسن تلك النية بلا أي ضيق، بعدما أدرك أن الأب المحنك يأس في إصلاح شخصيته المهزوزة، وأدرك عدم صلاحيته للقيام بدور العمدة من بعده، لا يرى فيه البأس واللدد المؤهلين للعمودية، وسياسة أهله المتمردين. حياة حسانين الحافلة في كفة، وما فعله يوم وفاة أبيه في كفة أخرى، أثناء الجنازة الذي لن يُنسى من ذاكرة النجع.

***

.. بدأ اليوم؛ حين استعدّ السيد صباحا للتوجه إلى المديرية لحضور اللقاء الدوري للغمد مع الحكمدار قبل بلوغه الحنطور تخاذلت قدماه، كاد يسقط أرضًا لولا تشبثه بعصاه. سارع إليه ولداه وجميع الخفر ليحوشوا وقعته الوشيكة. نهرهم بعنف فلزموا أماكنهم يرتعبون من بشائر غضبته الهادرة. ساقاه لا تقدران على حمله، لكنه استجمع قواه الخائرة، تجلّد ونصب ظهره، عقد ملامحه ومشي متظاهرًا بالشدة أمام الجميع. حدثته نفسه في يقين أن الأجل قد حلّ، لم يخف من الموت قدر رفضه أن يظفر أحدهم بالحكي عنه - ولو ولداه - بعد مماته بأنه سندهُ أو استشعر فيه الضعف لثوانٍ. تحامل على نفسه، دخل إلى الدوار يجرُّ قدميه لغرفته، تمدّد فوق سريره، لما اطمأن أنه بمفرده، استسلم لإلحاح وهنه الشامل، شهق وأغمض عينيه إلى الأبد!

طار إلى السعداوية نبأ مرض العمدة؛ هرعوا إلى الدوار لم يأتِ على بال أحدهم بأن العمدة قد يتوفى؛ فظنهم فيه الأبدية، العمدة لا يموت أبدًا، ولا سيما أنه يتمتع بصحة وافرة، ولم يمرض في حياته أبدًا. في باب غرفة نومه الموارب شافوه : ممدّدًا على سريره في كامل ملابسه، متخشبًا، عيناه مغمضتان، ملامحه معصوبة. جاء مفتش الصحة ليؤكد الوفاة. زاغت العيون وجفت الحلوق، ما بين مذهول وغير مصدق، انطلق نواح الحريم وعويل المعددات، يستقدّم أهل النجع من كل فجّ!

بدأت مراسم الدفن سريعًا؛ جيء بالنعش والكفن، استُدعيَ الحانوتي وحين انفرد بجسد العمدة يغسله، ظل يرتجف لأنه وجهًا لوجه مع العمدة السيد بجلالة قدره، جسده مُمدّدًا أمامه عاريًا مستسلمًا. ملامحه المتخشبة ولو أظلتها سحابة الموت بقيت مخيفة، ترتسم عليها ذات الشراسة المتأصلة فيها. يقف بساق أمام مَحفّة الغُسل حيث يدلق الماء عليه استعدادًا لتكفينه، والأخرى متوترة على أهبة الانطلاق صوب الباب؛ فهو على يقين أن العمدة وشيكًا ما سيستيقظ،

ويمسك بتلابيبه ويقتله؛ لأنه تجرأ واعتقد أنه مات وأقدم على تجهيزه للدفن.

خلال ساعتين؛ انتصب سرادق العزاء الكبير أمام المندرة يحاوط الدوار تركّب في مقدمته زوجي ميكروفونات. وقف حسن يستقبل المعزين باكيًا منهارًا، زين - ابن أربعة أعوام - ملتصقًا بأبيه مذعورًا يبحلق في الزحام، لا يفهم ما يجري حوله. أما حسانين فتجاوز صدمته سريعًا، كمِد خزنه العميق، لقنَهُ أبوه «الحي أبقى من الميت»، غرف بكفه من الزير شربة ماء رطبت حلقه الجاف. رسم خطة بلوغ العمودية بعد أبيه، نقطة البدء؛ جنازة مهيبة تليق بمكانة العمدة الراحل، يكتب بها السطر الأول في سجل عهده بالعمودية. شدّ نفسه ودخل في ثبات إلى غرفة التليفون، أبلغ المركز بالوفاة، ثم المديرية يُخبرهم برحيل العمدة الأهم لديها، كلف السعداوية بإذاعة الخبر بين أهل النجع لاستقدامهم للعزاء.

بدأ استعداداته لمقابلة المسئولين ممن سيأتون إلى الجنازة والعزاء : استحم، حلق ذقنه، تعطر ارتدى جلباب الجوخ المخصص للمناسبات الهامة، فرد فوقه العباءة الكشمير الفخيمة، ثم خرج من باب الدوار متماسكًا صارمًا، يضبط تنظيم السرادق. يشرف على ترتيبات خروج الجنازة الوشيكة، مشغولًا بكثافة الحضور يعطي تعلماته للجميع بإشارة من عصاه الأبانوس. يطمئن على كثافة الحضور؛ ليُظهر من خلاله مدى إحكام سيطرته على النجع، ما سيؤيده أمام رجال البوليس والديوان، فيشفعون به تقاريرهم السرية للحكمدار ومدير المديرية؛ لتزكيته لمنصب العمدة الجديد.

قبيل العصر؛ لمّا عَلِمَ أن العمدة مُجهز للدفن، أمر بإخلاء غرفة الغُسل من الناس. دخل على أبيه المُسجى على محفة الغُسل، فتّش في ملابسه المُستفة جانبه بحثًا عن ختمه، لمّا عثر عليه احتفظ به، ثم التقط إبهام أبيه - المتيبسة - وبصَمه بها على ورقتين بيضاوتين؛ بيّتَ النية أن يصطنع عليهما - الورقتين - عقدي بيع غيط القصب الكبير والبيت القديم، من العمدة السيد إلى نفسه. سيكتب العقود المزورة على أبيه بعد وفاته والاكلة لحق أخيه ببالٍ مطمئن وقناعة تامة؛ لكي يحافظ على مجد السعداوية يجب أن يصير هو عمدة النجع، ومُعززًا بالمال وحيازة الأرض. أخوه حسن الضعيف، يجب أن يكون تابعًا له، لن يقوى على المطالبة بدوره الطبيعي في العمودية، أو مواجهته بإنكار حصول البيع من أبيه.

قبل خروجه من الغرفة، تخشّع في وقفته الأخيرة أمام جسد أبيه، انحنى يطبع قُبلة على جبينهِ البارد، أفرغ فيها كل شجونه وخزنه الدفين. ترحّم بأسى على

من صنع منه رجلًا حقيقيًا، ونحت في طفولته بإزميل الجبروت؛ فلَقنهُ من مصغرهِ سُبل العيش في الحياة أسدًا هصورًا، وعلّمهُ كيف يمسك بالسوط ليسوق قطيع الحملان!

راودته ذكرى ليلة فارقة في حياته عاشها أيام صباه، حين اصطحبه الأب، أثناء التنقيب عن المقبرة الأثرية تحت سفح الجبل المتاخم للنجع، بأمر مباشر من مستر هاريس كلفه به سرًا من مكتبه لدى السفير البريطاني. في الخلاء المُقبض تحت سفح الجبل المتاخم للنجع : القمر المحتجب وراء الغيوم، يُرسل بصيص نور شاحب يزيد المنظر كآبة ورهبة، الذئاب تحوم حولهما، تزوم بعواءٍ خافت ولا تجرؤ على مبادرة هجوم واحدة، تتراجع كأنما تخشى السيد وتستشعر بأسهُ. استدعى ثلاثة حفارين أثريين، لمّا أتموا الحفر وخرجوا بالتماثيل مكفنة بالشاش من سرداب المقبرة، طلب منهم عمل حُفرة كبيرة جانب المقبرة بين الصخور العملاقة؛ زعمًا منه لهم أنها ستستخدم في تخبأة اللقية الأثرية بعد إخراجها. لمّا أتموا حفرها، أمطرهم بوابل من الأعيرة النارية لقتلهم؛ فتعلمات مستر هاريس صارمة كالعادة بشأن التنقيب : سريَة الحفر الأثري، وتسليم السيد محتويات المقبرة الأثرية الهامة له شخصيًا.

ألقى السيد بالأثريين الثلاثة في الحفرة، جثثًا مخرمة بالرصاص تنِك دماءً ساخنة. فيما بقِي واحد منهم يلفظ الروح، كلّف حسانين بمهمة الإجهاز عليه ثم دفنهم جميعًا؛ أراد سحق الخوف الفطري في نفس الصبي قبل استفحاله. أخذ حسانين البندقية ليقتله - لكن السيد شدها منه وأمره أن يُنفذ مهمته بالفأس؛ ليغرس فيه الاستهانة بسلب حياة البشر وتصغير هول الفعل عنده، فيستشعر عن قُرب نفضات الجسد والروح تُنزع منه، ويعتاد ملمس اللحم المتفسخ من على العظم المتكسر وتنطبع في أنفه رائحة دماء القتلى الطازجة.

لما لاحظ على ولدهِ بادرة تردد، جذبه من جلبابه وفزع فيه «اقلع قلبك يا ولد وخط بداله حجر صوان.. لو هو اللي مكانك مكانش هيرحمك». تقديسًا من حسانين لأبيه وإيمانًا بكل كلمة يقولها، سحق مخاوفه، نزل إلى عمق الحفرة، هشَم رأس الرجل بالفأس، شملته بعدها نوبة هياج دموي، اندفع يُقطع أوصال الباقين بضربات عنيفة، ثم وقف فوق أشلاء جثثهم المختلطة ببعضها البعض، يُهيل فوقهم التراب بيدين ملطختين بالدماء، وأبوه يرمقه بامتنان وفخر!

* * *

.. استوى جسد السيد مُكفّنًا داخل النعش، خرج من الدوار إلى جامع السعداوية القريب، محمولًا على الأكتاف استعدادًا لصلاة الجنازة. من الجامع؛ انطلق الموكب يلتحم مع الجموع الواقفة ملء باحة الجامع الفسيحة ليتدفق في طريقه للجبانة، كثيفًا متدافعًا بين الطرقات ومسالك البيوت، هاج التراب متحلقًا في الأفق كالشبورة، ولا صوت غير هَبد الأقدام على الأرض. صاح بعض السعداوية ممن يحملون النعش «العمدة عايز يزور مقام الشيخ الطشطوشي»؛ فالمأثور أن الميت هو من يُحرك النعش بنفسه ليزور الأحباب لتوديعهم قبل الدفن - فاندفعوا يسوقهم النعش، ومن ورائهم المشيعون تجاه الكامب الإنجليزي حيث يستقر المقام إلى جانبه، ليقفوا به دقيقة ثم انعوج النعش بعدها ناحية المدافن.

المشيعون؛ نزل عليهم سهم الله؛ يتعجبون كيف أن صندوقًا خشبيًا احتوى العمدة الجبّار يرقُد داخله حبيس الكفن مسلوب الحياة. كيف يعلم - العمدة - أنهم يُشيعونه ليدفنوه حتى يتحلل ويصير عظامًا ولا يُحرك ساكنًا. مأخوذون بعدم التصديق وأنفسهم تناجيهم : مات من سقاهم المُر طيلة سنين غبراء قهرهم فيها، داس الكرامة وسرق المال واستباح العرض. استخفهم لدرجة أنه كان ينادي عليهم بأسماء أمهاتهم، أو يُلحقهن على الملأ بوصف ينطبق عليهن « ابن المرة الحلوة.. ابن الفمشة.. ابن الولية أم بزاز كبيرة » ولا يقوى الرجل فيهم على الرد إلا بالصمت المقهور وإبداء التحبيذ، أو تصحيح الاسم، أو وصف أمه للعمدة إن اقتضى الأمر. قضوا بسببه ليالٍ سوداء، ماتوا فيها خوفًا ألف مرة قبل طلوع الشمس؛ لمجرد أن خفيره ببندقيته ذات الروحين المعلقة فوق كتفه، جاءهم ليلًا يبلغهم أن العمدة يطلبه باكر في الدوار اقتحم عليهم أحلامهم بنظراته المرعبة، فزوا صارخين من عمق نومهم لما هلوسوا بكرباجه يشوي لحمهم.

على كراهيتهم الدفينة للعمدة وشماتتهم في موته، نغّص فرحتهم ناحيته إحساس فادح وغريب بالفقد الشديد؛ فلن يروا جالدهم أو يسمعوا جسه مرة أخرى، شعروا بالضياع وكأنهم أصبحوا يتامى بلا أب يعولهم. يتساءلون في حيرة كيف ستستقيم حياتهم بدون مَنْ يقودهم ويهتدون بعصاه. وفي الدقائق التي تكدسوا فيها أمام مدفن السعداوية، تفشى بينهم حنين جارف إلى العمدة، وشاعت الأماني بعودته للحياة مرة أخرى، للحظة نبذوا مآسيهم معه، وصفحوا عنها دفعة واحدة. تشدقوا بأنه كان المرجع الأخير لهم، كلمته سيف على رقبة الكبير فيهم، رمز النجع وباعث هيبته - بين سائر القرى والبنادر من حولهم؛ إذا

ذكر النفر منهم أنه من نجع السعداوية، يعامل باحترام لأجل العمدة، تُحفظ حقوقه - تمهيدًا لأن يأكلها العمدة في النجع - ويزد إليه اعتباره؛ إذ يرى عمدتهم القوي أن الاعتداء على أي من رعاياه، بمثابة إعتداء عليه شخصيًا، ولا يهدأ له بال حتى يقتصّ له.

التقف اللحاد الجسد المديد، بمجرد إنزاله إلى فوهة القبر وبدء تلييسها بالطين لغلقها عليه، تبخرت هواجس مزايا العهد المنقضي، وطقشت الخلافات القديمة أركان الرءوس، كُل واحد فيهم تذكر ثأرة ومظلمته عن الآخر سيحتدم النزاع بين جميع العائلات، بعدما وأد العمدة الراحل كل الخلافات بقضائه الحاسم، وأذل كل نفس تتطلع إلى التمرد على سلطتهُ المطلقة عليهم، تمادت النوايا الانتقامية لذروتها، تتوق لانتزاع الحقوق المسلوبة وردها لأصحابها. تلاقت العيون الحاقدة تتعارك وتتوعد بعضها البعض.

اختلفت النوايا وتعددت المقاصد، غير أنها توافقت على معاداة السعداوية والمجاهرة بمناكفتهم علنًا؛ ليظل الهدف الأسمى: تقويض سياج الهيبة الذي أحاط آل سعد الله أنفسهم به، هيبة صنعها السيد بدءًا من : القبض على المطاريد المرعبين وإذلالهم، وصداقته النادرة مع الإنجليز ثم تصفية كافة الخصوم معنويًا ودمويًا، وصولًا إلى النجاح المُذهل في تكبيل حملة التوقيعات داخل النجع المؤيدة لسعد زغلول ورفاقه، والاحتفاظ بكرسي العمودية طيلة ثلاثين عامًا. تقزمُ الكافة من حولهِ، ليصير- السيد - ومعه السعداوية أساطير حيَة تعيش بينهم.

اعتقد أهل النجع أن الفرصة سانحة لهم الآن لمباغتة السعداوية، ودحرهم قبل الإفاقة من كبوتهم الكبرى بوفاة السيد. لكن رؤيتهم لحسانين في الجنازة، هدَ الآمال العريضة بالخلاص من تجبُر السعداوية؛ يقف أمامهم شامخًا يُفربد الشر فوق صرامة وجهه، يحدج الجميع بعينٍ حمراء تزأر وتطق شرازًا مخيفًا، تنفي أي انكسار بوفاة الأب، بل تتوعدهم بعهدٍ أقسى من سابقهِ. بعد دفن العمدة شافوه عند باب الجبانة عملاقًا مهيبًا، تطل رقبته من جلبابه مثل فوهة الزير يقبض على رأس عصاه كأنما يعصر أرواحهم في كفه. يتفرّس الوجوه ببصّاتٍ مروعة، تنقب بإصرار عن المشكوك في ولائه، يفتش في الضمائر بإصرار وتحفُز عن أدنى شماتة - ولو كامنة - يُنزل بها العقاب القاصف للرءوس؛ فسريعًا ما ارتدت النفوس لخنوعها الأصيل، كسُت وجوه أهل النجع تبادر برسم الحزن على ملامحها، ساحت العيون بالدموع الكذوبة، أبدعت الحناجر بكاءً وعويلًا منغومًا

ينعي العمدة الراحل.

فقدوا الأمل في اتباع الغرف السائد، بتقديم الأخ الأكبر حسن - المسالم - على الأصغر حسانين - الجبار- في تولي العمودية. تأكدوا أن حسانين؛ هو العمدة القادم لا محالة؛ إذ سعت إليه شخصيًا أقطاب الحكومة لتقديم واجب العزاء : مبعوثا الحكمدار ومدير المديرية، يصحبهما كبار موظفي الديوان العام، متبوعين بالمأمور وضباط المركز. لم يلتفت أحدهم إلى حسن - الطيب المتواري دائمًا - أو يعره أي اهتمام.

من الآن فصاعدًا عليهم الركوع أمام حسانين اتقاءً لأذاه؛ فهو نسخة من أبيه : مفترٍ، واعر الطبع، الحلال عنده مثل الحرام، يقتل القتيل ويشيع جنازته، والأهم أنه يبرع في تملق الحكومة، يضع رجالها في أصغر جيب بسيالة جلبابه، بل وأنه حسانين الأشرس والأكثر اندفاعًا من أبيه. غشيمًا؛ وقت الغضب تتبرجل أبراج مخه وتطير في لمح البصر ضربة كفهُ تفلق الحجر الصوّان، يطلق الأعيرة بغير تفكير القتيل عنده أهون من فرخ دجاجة لا ديّة له أو اعتبار. لم ينجح أبوه في ترويض اندفاعه، ليجعله يُميز بين وقت الانقضاض على خصمه علنًا فيجعله عبرة، وبين الوقت الذي ينقلب فيه عقرب، يتزحف ظهر غريمه صامتًا، فيلدغه بسمه الناقع.

*****

5

المأتم

.. عادت حشود المشيعين من الجبانة إلى الدوار اتخذ الجميع أماكنهم كما رصّهم حسانين : أهل النجع انتظموا صفوفًا متقابلة أمام السرادق، ليستقبلوا جحافل المُعزين الأغراب، أما السعداوية فمكثوا في الداخل ينظمون الجلوس. تصدّر حسانين المشهد تمامًا، وعكفَ السعداوية يُزينون عليه ثوب الزعامة الجديد : يمشون خلفه صاغرين، يُنادونه «يا عمدة» بكل تفخيم وعلى مسمع من الكافة؛ كمُبايعة له باعتلاء مقعد العمودية الشاغر مكان أبيه. مقرئو القرآن يتوافدون على الدوار تباعًا، يتخذون أماكنهم في غرفة المندرة المجهزة بالميكروفون الموصول بالبطارية الكهربائية، يتداولون تلاوة الأرباع.

مضى العزاء على نظامهِ المعتاد، حتى ظهر عند مدخل سرادق العزاء الشيخ

«أبو الجود» متسندًا على ولده. تعجب الناس من مجيء الشيخ إلى عزاء العمدة السيد، وهو - الشيخ - في حياته لم يسغ إليه، إنما الوحيد في النجع الذي حاز لقب خصم العمدة. ارتسم على وجهه المكرمش تجهم لا يفصح أبدًا عن نية خالصة للعزاء، مشي يجُر قدميه، كل خطوة تسحب خلفها حكاية من قصة حياته الطويلة!

***

.. الشيخ أبو الجود؛ ثمانيني وقور أزهري عالم بأمور الدين، هاجر بعد وفاة والده ، وهو غلام من النجع - مسقط رأسه - إلى القاهرة في السنة التي تولى فيها الخديو إسماعيل الحكم (عام 1863)، ليعيش في حي الغورية مع خاله. درس في الأزهر حتى صار في صحنه شيخًا مهمًا، ولنبهاته الربانية أمسى واحدًا من تلاميذ جمال الدين الأفغاني. غرف الشيخ أبو الجود بنضاله ضده الإنجليز ودوره الشجاع مع عرابي باشا، زامل أبطال الحكاوي المجيدة الملحونة على الربابة، مثل عبد الله النديم والإمام محمد عبده. جذبته أضواء السياسة بعدما دخل مكاتب الوزراء يعنفهم باسم الوطنية، ويهدّدهم بعاصفة الثورة العرابية، ثم تمادى في نفسه اقتفاء أثر الشهرة بعدما نزل ضيفًا على قصور كبار الباشوات وجالسهم ندًا لهم.

لتحميل المزيد من الكتب والروايات الحصرية ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

بعد وفاة الخديو توفيق؛ دعاهُ القصر لحضور مراسم تنصيب الخديو الشاب عباس حلمي الثاني على العرش، احتواه من بعدها حاكم مصر الجديد في كنفه وكفاه شر التنكيل بالعرابيين. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى عزل الإنجليز الخديو، واعتقلوا الشيخ أبو الجود بموجب قانون التجمهُر باعتباره من العناصر الثورية الخطرة على الإنجليز والعرش، وعاقبوه بالعزل من وظيفتهِ الهامة بمشيخة بالأزهر التي منحه إياها الخديو المعزول، ثم حدّد البوليس الإنجليزي إقامته في نجع السعداوية مسقط رأسه. طوال طريقه إلى منفاه ظل ينعي قلة حظه في السلطة والشهرة اللتان أدمنهما، ودأب يواسي نفسه بأن زعامته المؤكدة على النجع - ولو على قوم جهلاء يراهم والبهائم سواء - ستعوضه حينًا عن صيت وبريق القاهرة المفقودين منه، بل وربما دفعت به أصواتهم يومًا إلى البرلمان.

توقع الشيخ عند وصوله، موكبًا مهولًا يدخله النجع محمولًا على الأعناق لبطولاته ملء السمع والبصر لكنه تفاجأ بأن لا أحدًا في استقباله غير ضابط من مركز البوليس، يتمم على وصوله ويحرر محضرًا بذلك. اعتقد أنّ هذا الإنكار مفتعل ومن ترتيب البوليس كما يحدث في القاهرة، بترهيب الناس من عاقبة حفاوة استقباله. بعد صلاة العشاء باغتته الصدمة لما قابل الأهالي في المسجد، تكلموا معه بعفوية - استشف صدقها - أنهم بالفعل لا يعرفونه، ولا يعلمون شيئًا عن وصوله إلى النجع، وكذلك لم يسمعوا عنه من قبل.

حكى لهم بكبرياء ينزف - والصدمة لازالت تمتلكه - عن آرائه السياسية ونضاله الوطني، صولاته وجولاته ضد الإنجليز علاقته السابقة بأفندينا الذي سيرجع مرة أخرى إلى عرشه بعد اندحار الإنجليز في الحرب، لم يصادف حديثه لديهم أدنى اهتمام أو إدراك بما يفتخر به. إنما اتسعت حوله دائرة الناس لأجل عمامته الأزهرية المبجلة لديهم، وشرعوا يسألونه بشغف عن مقادير إخراج الزكاة، ومبطلات الصيام، وحكم الطلاق الشفهي، فيرُد عليهم وهو مغتاظ ومحبط. ومع الوقت على كراهيته لجهلهم امتلك قلوبهم لسعة علمه بأمور الدين وإجاباته الوافية عليهم، المشفوعة بآيات القرآن والأحاديث النبوية.

سريعًا ما تحققت بينه والسيد أسباب القطيعة بعد لقاء فاتر جمعهما، أملى عليه خلاله - بصفته العمدة - قائمة محاذير. السيد لا يعترف بعلم الشيخ كمبرر للزعامة، ويخشى تاريخه ولسانه بعد تحذيرات المأمور له منهما. والشيخ يزدري السيد لجهله ويحسده على الصدارة، فقد توقعه شاب ساذج حديث العهد بالعمودية، لكنه تفاجأ به - على أميته وضيق أفقه - محنكًا بالفطرة في موقع القيادة، يحجبهُ ويحاصر تطلعاتهُ وآماله. استوعب أن أهل النجع يبجلونه كونه فقيهًا في الدين؛ ابتغاء لرضى الله، ولكنهم في نفس الوقت لا يركعون إلا للسلطة وحامل الكرباج. تمنى لو حاكمه الإنجليز وسجنوه ليجعلوا منه بطلًا، يردد في سره بحنق أن الخبثاء - الإنجليز- نجحوا في تصفيته معنويًا، بنفيه وسط قوم جهلاء وجبناء!

انتهت الحرب وماتت ثورة سعد زغلول، ارتخت القبضة الأمنية للإنجليز ولم يجد الشيخ ما يمنعه من العودة إلى القاهرة، غازله طموحه السياسي من جديد، سافر ليصدم بأن جيله قد تآكل واندثر ولم يبقَ منه غير الشيخ رشيد رضا، ذهب ليقابله في مدرسة «الدعوة والإرشاد» التي يديرها. أفهمه الشيخ رشيد وهو غاضب بأنه لم يعُد للعباءات والقفاطين أي تأثير سياسي في الناس، بل أصبح

العامة والغوغاء يتندرون الآن على الأزهريين، يتعقبونهم بمقولة ساخرة رددها الشيخ رشيد له بحسرة «شد العمة شد.. تحت العمة قرد»، وأكد أن أنصار الوفد والشيوعيين الملاحدة روّجوها بخبث، تحسّر على أن المبادئ العلمانية غزت السياسة مع سعد زغلول ورفاقه، ولا أمل في عودة الناس إلى صحيح الدين إلا بصحوة إسلامية جديدة، تبدأ بجيل قادم يتخرج من هذه المدرسة - الدعوة والإرشاد - ولكنه أمر غير وارد في الوقت الحالي. ابهتَ تاريخهُ في عينيه واضمحل جاهه القديم، انزوى بين جدران بيته في الجمالية محبطًا، ولما ضاقت به سبل المعيشة قرّر العودة إلى النجع، باعتباره المكان الوحيد الذي يمنحهُ شيئًا من التقدير.

وفي النجع أيضًا انهارت ثقته بنفسهِ، لما اكتشف أنه ليس على عرش القداسة الروحية كما كان يعتقد، فالأهالي يفضلون عليه رجل مريب، حافي القدمين طويل اللحية، أشبه بمجاذيب أضرحة السيدة عائشة والحسين يُدعى «الشيخ الطشطوشي»، يرفعون شأنه بما يجاوز عصمة الأنبياء، يؤكدون أن له كرامات ومعجزات ودعوات مستجابة، يقيمون له مولدًا كبيرًا باسمهِ في دوار العمدة، يلتفون حول أريكته كبارًا وصغارًا يتبركون به؛ يقبّلون يديه وقدميه ويتمسحون في ثيابه البالية.

حاول الشيخ أبو الجود إقناع الناس أن إقامة الموالد بدعة محرمة، والتبرك بذلك «الطشطوشي» وأمثاله، يُعد شرعًا شركًا بالله. على حبهم لأبي الجود؛ قوبلت فتاويه بالإنكار المطلق والاستهجان الشديد. وثار الشيخ يركل رجلًا دعاه لتوبة نصوح، بأن يستعيذ بالله ويذهب معه ليقبّل يد الطشطوشي المبروكة؛ لعل الولي يُسامحه على قدحهِ الدائم له، فيعفو عنه الله عز وجلّ لافترائه على أولياء الله الصالحين بفتاوي غير مسئولة.

تذكر أن تلك الرواية تمت إعدادها عن طريق مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة .

فيما اطردت السنوات تنطوي على خصومة مضمرة بين الشيخ أبو الجود والعمدة السيد. كلاهما يخشى الآخر في قرارة نفسه ويناى بنفسه عن الصدام : السيد لا يرى الشيخ قرويًا مثله، إنما يعتبره قاهريًا يعيش في النجع؛ سمته وعاداته ولهجته بندرية مثل القاهريين، وهو - كقروي - يرتاب مِنْ القاهرة ومَنْ يأتي منها. زاد توجسه من الشيخ، لما شاف الأفندية الذين يأتون لزيارته من القاهرة كل فترة، فلم يتجرأ عليه بما اعتبره مجازفة غير محسوبة، يكشر في

أعقابها القاهريون أصدقاء الشيخ عن أنيابهم غيرةً على شيخهم الأثير وقد يعزلونه من العمودية. والشيخ من جانبه آثر السلامة بالابتعاد عن استفزاز السيد؛ حفاظًا على ما تبقى له من قيمة معنوية قد تهترها عصا السيد الهمجية؛ فترك له الزعامة مكتفيًا بتبجيل الناس، وأما أهل النجع أدركوا الصراع الخفي بينهما، فلم يغالوا في إجلال الشيخ وإظهار حبهم الجارف له؛ فظلوا يعاملونه بحذر بما لا يستفز العمدة. إذا ما احتاج أيهم إلى فتوى ذهب إلى بيت الشيخ سرًا، وإذا قابلوه في الطريق يصافحونه من دون احتفاء لائق بقدره عندهم.

***

تقبض حسانين لما رأى الشيخ أبو الجود، اشتعل غيظًا لما لاحظ تلفحه بشالٍ سُكَّري اللون منغمش بالأحمر وانتعاله حذاء أبيض؛ كمجاهرةٍ منه بفرحة لموت العمدة خصمه. وسحب نبوته الثقيل لاعتراضه ومنعه بالقوة من دخول حرم الدوّار. إدراكًا من السعداوية مدى تهوُّر حسانين، هرعوا ناحيته يمسكون بذراعه، يحثونه على تمالك أعصابه حفاظًا على مظهر ووقار مأتم العمدة، ويُقنعونه بأن الحساب سيأتي فيما بعد انتهاء العزاء. حاش حسانين نفسه عن تأديب الشيخ مؤقتًا، وبقي الغضب يجيشُ في صدره كإعصار مكتوم. دخل الشيخ المندرة في صمت. انتهى رَبِع القرآن، أبدى الشيخ رغبته في قراءة القرآن، قام له المقرئون في إجلال، ترنَّح أمام الميكروفون وشرع في التلاوة..

***

.. عبر الميكروفون؛ سرى صوت الشيخ رخيمًا في الاستعاذة والبسملة، سكت لثانية يشحذ أنفاسه استعدادًا لبدء التلاوة. انبرى ينتقي آيات الطغيان والفسوق ويرتلها في أرباعٍ موجزة. للخلاف المعروف بين العمدة والشيخ، اعتقد السامعون أن الشيخ يرميه بتلك الآيات الزاجرة، لما ألبسوها للعمدة جاءت كلها على مقاسه. وما أكد مقصد الشيخ تجاه العمدة الراحل، عدم اكتفائه بتلاوة عادية، بل وراح يعلو ويهبط بطبقات صوته؛ يسخر بها منه ويشمت فيه، اتكأ على مخارج الحروف يُفخمها معظمًا بها آثامه، يمدّ رءوس الآيات مبكتًا ومتهكمًا، محققًا بها أهوال عذاب غريمه، يصفه - من خلال التلاوة - طاغوتًا ظالمًا، زانيًا فاجرًا.

مع تجليات الشيخ في تلاوة ملحمته القرآنية، بدا السرادق في عين السامعين وكأنه ساحة سماوية للاقتصاص من العمدة، يقف فيها أمامهم ذليلًا بلا شفيع،

والشيخ لا يتوقف عن الترنم بالآيات القاصفة، بها يتلو عليه ذنوبه، ويُطلعه على أثقال أوزاره، ويعرض فظائع أعماله. ساد ارتياح بين أهالي النجع، لمّا طار الشيخ بخيالهم على بساط صوته الملعلع ووقف به أعلى حافة جهنم، ليشاهدوا خصيمهم يُشوى في باطنها.

فطن حسانين لتهجمات الشيخ، اشتطّ فيه الغضب يغيّب رُشده لما رأى الجذوع من حوله تهتزُّ طربًا بلَعن أبيه، فلم يشعر بنفسه إلّا وهو يقتحم المندرة ممسكًا بتلابيب الشيخ. غاض دم العجوز في عروقه ذُعرًا، وتخشّب جسده الضامر بين يدي حسانين الجبارتين، مذهولًا من هجومه المباغت، إذ لم يتصور أبدًا أن يتجرأ عليه بمثل هذا الاعتداء الهمجي، الذي لم يجرؤ عليه أبيه طيلة حياته. فرَّ ابن الشيخ من بين المقرئين مدافعًا عن أبيه. جندلهُ حسانين بركلة عنيفة، وأرجح نبوته في الهواء ونزل به فوق نافوخه يفتته، ليسقط تحت قدميه سائحًا في دمه. الميكروفون يُضخم من صوت المعركة داخل المندرة، فتدافع المُعزون يغادرون السرادق. أغلق حسانين باب المندرة بعدما فرَّ منها المقرئون، وجذب الشيخ المفزوع، وسحله على الأرض وصرخ فيه :

- لسانك ده اللي بتتهجم بيه على سيدك مش راح يقعد جوه بوزك تاني..

أخرج من سيالة جلبابه مطواة، فتحها ومال عليه يفشخ حنكه، بحركة سريعة حزَّ لسانه، ليتركه وسط بركة من دمه، خرج من المندرة في قبضة يده لسان الشيخ كالمضغة تقطُر دمًا، ثم رمى به إلى رهط من الكلاب أمام السرادق لتأكله.

* * *

.. بعد دقائق؛ خلا السرادق على حسانين وأخيه حسن وأولاد عمه. هرولوا إلى داخل المندرة لمعاينة الكارثة التي حلّت بهم، فوجدوا الشيخ أبو الجود وابنه متكومين على الأرض بلا حراك، يفترشون حصيرة من دمائهما. قابل حسانين الموقف باستهانة، مؤكدًا - للموجود من السعداوية - أن أي نفر ممن شهدوا الواقعة، لن يجرؤ على الإبلاغ عليه، وأن الحادثة أسوة بغيرها، ثم ذكر على نفسه واحدة وعلى أبيه ثلاث، ستفيد مثلهم ضد قاتل مجهول، لخلوها من الشهود، بعدما أحجموا عن الإبلاغ بما شافوه جُبنًا وخوفًا.

كان لظن حسانين أن يتحقق، بامتناع الأهالي عن الشهادة ضده كالمعتاد، لولا تصوُّر شاع بينهم، صبغ لهم الحادثة بلون آخر: أن حسانين الفاجر عديم الدين، جعل الكلاب تأكل كلام الله لما قطع لسان الشيخ الطاهر المرتّل للقرآن ورماه

لهم؛ فهكذا أكل الكلاب كلام الله. شبت فيهم حمية غير مسبوقة تحدوهم للاقتصاص لدينهم، تلومهم على كتمان الشهادة، احتقروا أنفسهم لارتعابهم من حسانين ومن قبله السيد، وعدم خوفهم من الله. جمعوا أنفسهم وزحفوا إلى المركز أدلوا بشهادتهم - على حسانين - مفصلة في محضر رسمي، أخطرت به النيابة، يتهمونه بإحداث إصابة مميتة بالشيخ، وإصابة ولده إصابة جسيمة.

انتقل المأمور والضباط إلى الدوار يتبعهم مفتش الصحة الذي أعلن وفاة الشيخ، وإصابة الابن بكسور خطيرة في الرأس والوجه، لتأمر النيابة العمومية بضبط وإحضار حسانين باعتباره متهما بقتل الشيخ وإصابة ابنه. لم يجد حسانين بُدًا من عدم القبض عليه سوى الاختباء في غيطٍ بعيد. استنجد بنائب الدائرة برهان باشا - المحامي القدير- بأن يترافع من أجله، فاعتذر له الباشا برفق؛ كي لا يحرج مركزه في الدائرة الانتخابية، لكنه تعهد بمؤازرته بكل ما يملك من قوة؛ فكلف له - سرًا - محامٍ كفء، جاء مسافرًا من القاهرة ليطلع على أوراق القضية، تكفل الباشا بأتعابه ومصاريف انتقاله إلى الصعيد. ثم تشفع الباشا لحسانين عند حكمدار المديرية بأن : يأمر ضباطه بالكف عن محاولة القبض على حسانين أثناء فترة التحقيقات، والاكتفاء بتقديم القضية - دون شخص المتهم - إلى محكمة الجنايات.

لاقت الشفاعة قبولًا وترحيبًا عند الحكمدار؛ لمركز الباشا النيابي، وتواتر الأنباء عن ترشحه للوزارة الجديدة، فضلًا عن مصاهرته لوزير الداخلية - التي لوح بها في وجهه. وفي معرض دفاع الباشا عن حسانين شدد للحكمدار بأن : حسانين وأباه مهما كان من رجال الحكومة المخلصين، ويجب أن نُزد لهما أفضالهما الآن، أما الشيخ «أبو الجود» المقتول؛ له تاريخ أسود في معارضة القصر طول حياته يعمل ضد العرش.

أكد المحامي لحسانين أن الأمل في البراءة كبير إذا ما عدل الشهود عن أقوالهم في محضر البوليس، وأنكروها كاملة أمام النيابة؛ فأوعز حسانين لأقاربه بترهيب الشهود، فتوعدوهم بالقتل إذا ما شهدوا بمضمون المحضر في تحقيقات النيابة. على سبيل إظهار العين الحمراء، بادر السعداوية بحرق جرونهم ونهب وتخريب محصول العام، لوحوا بذبح الأطفال، واستباحة البيوت، وخطف النساء، خزموا جدران بيوتهم بأعيرة نارية أطلقوها ليل نهار بغير انقطاع، منعوهم بالقوة من الوصول إلى غيطانهم العطشى بعدما حاشوا عنها المياه بغلق الهاويس، بعد أوامر سرية من الحكمدار إلى مهندسي الري أن يتروكهم

يغلقونه.

استشعر الأهالي تواطؤ المركز: إزاء عدم قبض رجال البوليس على حسانين الذي عاد يتجول في النجع بأريحية، وكذلك لم يكترث الضباط بهمجية السعداوية، أو يسعوا إلى الحد من سعارهم المجنون - الذي فاق المطاريد في زمانهم؛ فتراجعوا عن موقفهم من الشهادة، بعثوا بأسفهم إلى كل نفر في السعداوية اتقاءً لشرهم.

أمام وكيل النيابة، نفى الشهود كل أقوالهم المثبتة في محضر الشرطة، ادعوا تحريفها وتزويرها عليهم، بل وأنكروا توقيعهم عليه. لتتحد شهادتهم - المسبوقة بحلف اليمين - على : عدم معرفتهم حقيقة الواقعة، وكذلك جهلهم بشخص القاتل، وكيفية حدوث الجريمة. عكفت النيابة تستجدي الدليل، بحثًا عن شاهد رؤية. لم تجد ما تبعث به إلى محكمة جنايات أسيوط من أدلة ثبوت الاتهام - سوى تحريات البوليس، والتي بدورها تشكك فيه القضاة؛ لِما تضمنه من عبارات مائعة لا تدين حسانين «على الأرجح أن الجاني حسانين أو أحد أقاربه.. لا نستطيع تحديد التصوُّرالدقيق للواقعة وكذلك المتهم.. لم نعثر على الأداة المستخدمة في الجريمة.. تؤكد التحريات أن حسانين ليس بينه وبين الشيخ خلافات تدفعه إلى قتله».

سارت الأمور في صالح حسانين، كما خطط لها برهان باشا والمحامي، ونفذها السعداوية، لولا قفز أحد خصوم الباشا السياسيين إلى الساحة؛ صحفي وفدي، ساهم العمدة السيد في إسقاطه مرارًا في الانتخابات النيابية - لصالح برهان باشا. نكاية في الباشا والعمدة السيد انبرى في مقالاته؛ يذكِّر الناس بتاريخ النضال الوطني للشيخ أبو الجود، ينعي قاتله ويطالب بمحاكمته وسجنه. شرعت النخبة القاهرية تتهم جهات الأمن بالتستر على الحادث، وحجب الأدلة وتقتيرها على المحكمة، والسماح لذويه - السعداوية - بتخويف الشهود، نددت بأن القاتل خرُّ طليق. من شرفات نوادي العاصمة الأرستقراطية، وصالونات السياسة الفخمة، أخذت جناية «نجع السعداوية» بُعدًا آخر وصارت على كل لسان، بعدما تحولت إلى قضية رأي عام : مقتل عالم جليل ومناضل وطني على يد ابن عمدة حليف للبوليس والانجليز!

الوفديون؛ راق لهم اعتلاء موجة الشجب والإنكار على حساب الإنجليز. راحوا يصفون بشاعة الجريمة ويهولون من دلالاتها؛ صوروها على إنها دنشواي الجديدة، رسموا عنها كاريكاتيرًا تحريضيًا: فلاحًا - رمزًا لحسانين - يلبس جلبابًا

فوق رأسه قبعة إنجليزية، ممسكًا بسكين يقطر دماءً، وفي يده الأخرى لسان الشيخ المقطوع، وخلفه يافطة النجع مكتوب عليها « نجع بريطانيا العظمى»! والبوليس يؤكد حياديته، معلنًا مواصلة البحث عن المتهم الهارب لضبطه. فز حسانين - بالتنسيق مع البوليس سرًا - إلى القاهرة على ظهر مركب في النيل، ثم انتقل متخفيًا لسوق روض الفرج، بناءً على توصية من برهان باشا، حيث يتوه فيه وسط جحافل الصعايدة، ولا يبدو في هيئته أنه غريب على المكان.

رغم كل الصياح السياسي والتنديدات الصحفية، اعتصم الشهود - المهدَدون - أمام المحكمة بإنكار التهمة على حسانين، لم تعثر المحكمة على دليل معتبر ضده، يستطيع حمل قضاء الإدانة؛ لتحكم بعد عشرة أشهر ببراءة حسانين غيابيًا، وتُودع حكم البراءة مُسببًا بعدم كفاية الأدلة. بعد الحكم لحسانين بالبراءة، حظر عليه البوليس العودة إلى النجع لفترة كافية، حتى تهدأ الصدور وينسى الرأي العام أمر الحادث. حاول إقناعهم أن عودته لن يطرأ بها طارئ، بل إنه بفعلته في الشيخ ثم تبرئته تضاعفت قوته كعمدة - بدلًا من أخيه - عشرات المرات، بل وفاق أبيه هيبةً وترويعًا للأهالي. لكن قيادات البوليس أصرت على موقفها؛ فأذعن حسانين لهم وأقام في القاهرة، منتظرًا الإذن له بالعودة.

*****

6

روض الفرج

من آخر الشارع، رأى زين عمه حسانين مقبلًا عليه ففز واقفًا. منذ صباه وهو متحمس لسماع سيرة عمه القوي، يُنصت بشغف لما يُحكَى عنه برهبة وتقدير تمنَى وقتها لو عاد عمه إلى النجع وأخرس كل من تطاول على أبيه العمدة، لكن بعدما نبت في نفسه خلم العمودية كره سيرة العم الغائب، ثم انقلبت كراهيته خوفًا من عودة حسانين إلى النجع، فيعترض طريقه ويُنصَب عمدة بدلًا منه. ومع عزل أبيه ومرور السعداوية بتلك الأيام العصيبة بعد الثورة، تمنى عودة حسانين - ولو على حساب حلم حياته أن يصبح عمدة - ليُصلح الأحوال ويَرُد العمودية والهيبة إلى السعداوية.

زين لا يتلهف لرؤية شخص عمه الغائب، قدر تعطشه لاستذاقة طعم الهيبة الضائعة، اعتبر أنه سيقابل جده العمدة «السيد سعد الله» في هيئة حسانين؛

سيرى نفس جلسة العمدة الكبير ونبرة صوته وطريقته كما سمع عنها. يشحذ كل جوارحه قبل اللقاء المرتقب؛ ليرى ما في نفسه من تطابق مع حسانين القوي، وما لا يجده يسعى أن يقلده ويخلقه سواء بنفسه أو هيئته.

اقترب حسانين من زين، مذ ناحيته خطوة واسعة، انحنى زين يُقبّل يده في تهيّب. ربت حسانين على كتفه وردد :

- حمد لله على السلامة..

***

.. جلس زين وحسانين على المقهى، ومن الدقائق الأولى، اندفع زين يحكي لعمه بأسى عن تفاصيل حال السعداوية المؤسف : من أول قرار أبيه فك الفلكة، ثم كسر عصا جده السيد، وضياع العمودية، وعلى آخر لحظة أمسك لسانه عن حكي نزوته مع فاطمة. ينتظر بفارغ الصبر قرار العم الجبار بتأجيل شراء مصنع الخواجة؛ لتفاهة الصفقة - التي تغرب لأجلها - مقارنةً بالفظائع الحاصلة، وأن يهب كعادته هائجًا عنيفًا، يقتحم النجع على الغوغاء كالإعصار لتأديبهم، وفي ذروة انفعالاته عن مصير العائلة المهددة بالاندثار والتفكك، تفاجأ بملامح حسانين باردة، لم تتزحزح عن تعبيراتِ الاستهانة واللامبالاة، مشغولًا بحجر المعسل، قطع حماسة استرساله المنفعل مرارًا، بمناداة صبي المقهى أن يُعدّ له كوب شاي أو ينسون. لا يعطي لكلام زين أي أهمية أو يصغي بانتباه، إلّا إذا تطرق لجوانب مالية تتعلق بإيراد الأرض، أو سؤاله عن أسعار بيع القراريط في النجع.

انتهى زين من كلامه بعدما جفّ ريقه، ليبقى حائرًا بسبب رد فعل عمه الفاتر فوجد نفسه بتلقائية يخالس النظر إلى شاربه - رمز القوة والنخوة - فلم يَرَهُ منفوشًا مفتولًا مثل شاربه وسائر شوارب السعداوية السخية، بل صار رفيعًا محنتفًا مثل شوارب الأفندية البحراوية. أطلق عينيه الناقدة بلا حياء تتفحص هيئة عمه الجديدة : يرتدي جلبابًا - إفرنجيًا - بياقة قصيرة وبلا صديري، فوقه بالطو أسود طويل، أنزل العمامة الكبيرة من فوق رأسه، ولفّ مكانها لاسة رهيفة مزكرشة. ناوشه حدس كارثي، أن إقامة عمه في القاهرة دفعته إلى التخلي عن تقاليده الأصيلة، وتغيير قناعاته الصعيدية، اعتياده عيشة البندر ومخالطة أهله هو سبب تنصله عن العائلة من وقت هجرته، وتراخيه عن أزماتها طوال الفترات السابقة رغم نداءات الاستعانة به المتتالية. حاول إعادة صياغة كلامه ثم

تلاوته على عمه مرة أخرى؛ آملا أن يحدث فيه أثرًا، لكن حسانين قطع عله طريق الاسترسال في حديث ملّهٔ، اعتدل ناحيته يكلمهٔ في يقين :

- ما تبصش تحت رجليك يا ولدي.. النجع مفيهش غير الفقر.. زي طشت عقارب كله عايز يموت كله!

ساد بينهما صمت قصير قطعه توافد موظفي الوكالة على حسانين، أفندية مكتملون، يحملون الدفاتر الكبيرة وأقلام الكوبية. مع بدء كلامه معهم، صُدم زين في لهجة عمه الغريبة على أذنه، مقاوحته بإصرار لكسر اللكنة الصعيدية القديمة، فخرجت عباراته لهم مشوّهة الهوية، مزجًا مائعًا بين لهجتي الصعايدة والبحراوية، ومع انصراف الموظفين أقبل عليهما لفيف من تجار السوق، سحبوا عددًا من الكراسي حولهما وقعدوا، فتكلم عمه تلك المرة مثل أهل السوق، إذ راح يُفاصل ويحلف ويقاوح، يعوج رقبته ويلوح بيده ويلعب حاجبيه. أحبط زين لمّا تحقق له أن عمه لم يعُد حسانين أبو العمدة المخيف، بل مُسخ إلى كما يسمى هنا «المعلم حسانين» التاجر الشاطر.

رغم حنقه من عمه أعجب بثباته وثقة حديثه، فمن بين طيّات الكلام المتناثر بينهم، سمعه يتكلم عن توريدات فاكهة من وكالته إلى محلات كبرى بمئات الجنيهات، يُردد أسماء فخمة استشف أنها لمسئولين كبار لن يقلوا عن كونهم وزراء، ضباط مهمين، باشوات سابقين، وثقة حسانين في الحديث عنهم وتداول أخبارهم، تؤكد عمق ومتانة علاقته بهم. تطلع إلى عمه بفضول لمعرفة ما وراء هذه الحياة المصراوية البزاقة ثم يمضي محتازًا في تساؤلاته لنفسه : كيف نفذ عمه لدائرة أهل البندر المنغلقة على نفسها، بل ونجح في جعل عشرات من الأفندية المغرورين في خدمته وتحت أمره، يهشهم من أمامه كالذباب بإشارة هينة من مبسم الشيشة، يتحدث عن ألوف الجنيهات باستهانة كأنها ملاليم، علاقاته الوطيدة بعلية القوم لم - ولن - يدركها أي نفر من السعداوية يومًا، ولا حتى جده العمدة السيد في زمانه!

وكأنّ حسانين فطن لكل ما يدور في رأس ابن أخيه، التفت إليه نحوه مبتسمًا :

- العيشة هنا يا ولدي عيشة بني أمين بصحيح!

***

.. أدرك حسانين حقيقة نظرات زين المتعجبة، وفهم منها سبب سخطه البادي

على وجهه، عذره حينما تذكّر شعوره السيئ في أيامه الأولى بالقاهرة، لمّا ارتحل هاربًا من خطر السجن إلى سوق روض الفرج، إذ كان يؤكد لنفسه كل صباح أن بقاءه في هذا المكان الموحش ليس إلا وضعًا مؤقتًا؛ يكره عيشة البندر ولا يرتاح لأهله، يتلهف مغاردة القاهرة بفارغ الصبر ثم الهرب ركضًا من وجهها المقيت ولو إلى المعتقل ذاته، ويقسم كل دقيقة ألف مرة ألّا تطأها قدمه مرة أخرى. لا تفارقه أمنيات العودة إلى النجع، وابتناء أحلام مجده في العمودية خلفًا لأبيه. ظلّ مهمومًا بحال السعداوية طيلة فترة غيابه، متأكدًا من حتمية تمرّد النجع على أخيه العمدة الجديد والمؤقت، وانفلات الزمام منه - أجلًا أم عاجلًا- لضعفه وخسن نواياه مع أهل النجع الخبثاء.

إزاء طول فترة نفي في القاهرة حسانين ويأسه من العودة للنجع، رفض حياة الغريب العاطل، فحاول التأقلم مع الوضع حوله، وبرأس مال صغير أتجر في الفاكهة والخضروات مثل غالب الصعايدة بالسوق، استأجر دكانًا وعربة كارو وحمارين. خلال فترة وجيزة زاجت بضاعته، واكتشف في نفسه ذكاءً تجاريًا، ذاع اسمه في السوق كتاجر صاعد بقوة، وسريعًا ما جرى المال الوفير في يده، وافتتح وكالة سرعان ما اتسع نشاطها.

بعد ثلاثة أعوام، لمّا سمح له البوليس بالعودة لنجع السعداوية، تفاجأ بنفسه كارهًا لحياة الريف الكئيبة الصعبة، بعدما تنعّم في عيشة البندر المريحة، فلديه شقة مجهزة بها حمام إفرنجي تعلم القعود عليه، وبوتاجاز وفريجيدير اعتاد استعمالهما. إلحاح السعداوية بعودته لاستلام مهام العمودية بدلًا من شقيقه حسن، راح يستأجله أسابيع ثم شهورًا، متحججًا لجموعهم بضيق الوقت. عزّ عليه التضحية بهناء ورونق حياته الرغيدة، سيكون مغفلًا إذا ما بتر شريان المال السهل الوفير المتدفق عليه من غير حساب، بتصفية تجارته المزدهرة والعودة إلى فلاحة الأرض، ومناكفة أنفار اليومية الخبثاء، ثم استجداء التجار الأنطاع، ورشوة زبانية الحكومة المحلية الجشعين؛ ليشتروا منه المحصول المهدد بالتلف كل عام.

وبعد الشقاء المضني في طين الأرض عام كامل، يجد إجمالي إيراد المحصول كله، تربحه الوكالة بتوريدة واحدة إلى محل «جروبي» أو لإحدي حفلات سرايات باشوات الزمالك وجاردن سيتي، وقد تخصّص في تزويدها بالفاكهة بعدما كسب ثقة أهلها؛ فتراكم «البنكنوت» في محفظته وفيزا معبقًا بالعطور ليس كأيام الفلاحة، شحيحًا بالنيا، وملطخًا ببرقات ديدان الأرض!

زهد العمودية ولم يعد يرها قضية حياته الكبرى؛ مع طول عيشه في البندر ومخالطة أهله - وبالأخص علية القوم منهم - تضاءلت قيمتها في نظره لدرجة مثيرة للشفقة، اعتبر مجدها لا يُقارن أبدًا بما بلغه في القاهرة من قدر وقيمة في ذلك الوقت القصير ولا تستحق - العمودية - كل هذا العراك المرير لبلوغها، ثم تكبّد ما لا يُطاق لأجل الحفاظ عليها. رأى العمودية بمنطقه الجديد : حرب همجية تدور بين جحافل المعدمين وأرتال الجهلة، تراق في هوجتها دماءهم - الرخيصة عندهم - بحوزا، يتقاتلون بشراسة ليفوز أحدهم بمنصب زعيم العميان وكبير المغيبين. لم يجد سببًا واحدًا يقنعه بضرورة العودة إلى النجع، فقرر في نهاية المطاف الاستقرار في القاهرة. اشترى عمارة في السوق وسكن فيها، ثم بعد وقت قصير اتسعت تجارته، ومعها تشعبت علاقته وتوثّقت برجال المال والسياسة، فانتقل إلى بيت رحب في العباسية، ليسكن إلى جوار الصفوة.

مسيرة حسانين الناجحة في السوق، لم تكن يسيرة أو ممهدة، لأنه بخلاف المنافسة العنيفة بين التجار كان المعلم «محمود الأكرم» له عقبة كبرى، فهو؛ كبير تجار السوق تعود أصوله لنجع السعداوية، قلبه متورم بكراهية قديمة تجاه العمدة السيد، بعدما هرس كرامته، وهجّجهُ من النجع بفضيحة مجلجلة، عمرها ربع قرن من الزمن.

* * *

.. المعلم محمود الأكرم - العساس سابقًا، استمد لقبهُ القديم «العساس» من مهنته - غسّ البهائم؛ إذ يُشمر ذراعه كاملًا، ويدفسهُ - حتى الكوع أو أزيد قليلًا - في دُبر البهيمة، ليعرف ما إذا كانت غشر من عدمه، نظير قروش زهيدة، ويظل يتمحلس لمالك البهيمة حتى يدعوه لتوليدها كي يحصل على نفحته الكبرى. لم يقنع بمهنته الرخيصة المقرفة، احترف سرقة صوامع الغلة، والسطو على الزرائب. لمّا تكرّرت سرقاته وضاق به العمدة السيد، كلّف الخفر بضبطه، فساقوه من عشة البوص التي يسكنها، ربطوه على جذع نخلة أمام الدوار على مرأى ومسمع من الأهالي.

اعترف بالسرقة مع أول جلدة كرباج على ظهره العاري، توسّل للعمدة أن يرحمه، وحلف ألّا يعود إلى السرقة مجددًا. أنكر العمدة عليه قسمه؛ لص مثله عديم الشرف لا يُقبل منه حلفان، ترجم الخفر غضب العمدة إلى تمزيع لحمه والمزيد من الوحشية في الضرب حتى أغمي عليه، دعكوا ظهره الدامي بالملح ففاق يعوي من الوجع. أمرالعمدة الخفر بفك وثاقه وحلاقة نصف شاربه، ثم

كبوا عليه الدقيق وريش الفراخ، أقعدوه على الحمار بالمقلوب، وطافوا به طرقات النجع، زاط الصبية حوله يقذفونه بالحصى، يزفونه «يا عساس يا وش القملة مين قالك تعمل دي العملة». في الليل عاد إلى عشته ذليلًا يتسحب، طلب من زوجته الاستعداد لمغادرة النجع معه - كأمر العمدة - للأبد، سخرت منه، فليس لهما مأوى غير تلك العشة النابتة في الخلاء، ثم بكتته وغالت في الاعتراض، رمى عليها يمين الطلاق ورحل!

طفش من النجع مخزيًا بغير هُدى، حدفه ضيق الحال إلى سوق روض الفرج. عمل شيالًا باليومية لدى تاجر عجوز يملك وكالة كبيرة. ارتضى في البداية أن يقوم مقام الحمير نهارًا، والنوم على الرصيف ليلًا. انتهز بادرة ريبة لدى التاجر في ذمة باشكاتب الوكالة، فحقق له شكوكه بوشاية محبوكة، ليُطرد الباشكاتب، ومن بعده أبدى العساس للتاجر المريض شطارة في العمل، ولا سيما درايته بشيء من القراءة والكتابة، فأعفاه العجوز من عمله المضني اقتناعًا بمهارته، وأسلمه إدارة الوكالة. توفي من غير ذرية ترثه، فتدحلب العساس لأرملته الكركوبة، حتى وثقت فيه وتزوجته، لتموت هي الأخرى بعد عامين، فورث الجمل بما حمل!

استهل مشوار صعوده بطمس ماضيه المشين، بادئًا بلقبه «العساس» وقد غيره إلى «محمود الأكرم»- على أن يكون اسمًا على مُسمى؛ سافر إلى الأراضي الحجازية للحج، لما عاد شيّد جامعًا كبيرًا يُقيم حوله سرادقات كبيرة لإطعام الفقراء والمساكين. ظهر في ثوبه الجديد تاجرًا ثريًا ورعًا، يُسارع إلى فعل الخير يرعى الأرامل ويكفل الأيتام. خلق حوله عزوة من الأتباع تُسبّح بحمده، تُروّج لعراقة نسبه الشريف، وأصوله الصعيدية المحترمة. تزوج امرأة من الطبقة الراقية وأنسلها أربع بنات، صرن من أبناء الذوات يسكنون في الزمالك!

لمّا أحسّ العساس، بوفود حسانين - ابن العمدة السيد - على روض الفرج تاجرًا جديدًا، شعلل الحقد الكامن في قلبه. رآه في السوق - العالم الذي يحكمه - لقمة سائغة، مضغها سيشفي غليل السنين، اندفع صوبه كقذيفة مشحونة بأوزار ماضيه الأليم. وأمّا حسانين فكان يجهل القوة الحقيقية للعساس؛ لم يعتبره غير «عساس البهائم» الوضيع، اللص المطرود، الذي أدركه في صباه مصلوبًا على جذع النخلة، يبكي مثل الحريم وجسده يشلب دمًا. تعجّب من حديث التجار عنه بمنتهى التوقير فأخذ يتلفظ عليه معهم بلقبه القديم، ويحكي عن مهنته المُقرفة. أنكر التجار على حسانين كلامه، اعتبروه مفروزًا يهذي، يفتري على الرجل

الصالح، وشيخ التجار الكريم!

***

.. بلغ العساس تطاولات حسانين عليه؛ لم يتوانَ أن يُسلّط موظفي البلدية ومعاوني قسم البوليس - من محاسيبه - على ابن العمدة قليل الأدب لكسر غروره. شنوا عليه حملة واقتحموا الدكان، التفوا حوله يحاصرونه، بعثروا له البضاعة واتهموه بمخالفة التسعيرة، وقبلما ينطق بكلمة واحدة، صفعه معاون البوليس بكفٍ على قفاه، قرصتة مهانة من لم يعتد من الحكومة سوى الاحترام والتقدير ومن دون سابق إنذار رنّ الأونباشي على قفاه بكفٍ آخر تلقاهُ في امتثال، سأل الأونباشي بتضرُّع والقهر يخنق صوته :

- ليه كده يا سعادة البيه.. أنا وَلد عمدة برده.. وطول عمرنا خدامين الحكومة..

ردّ الأونباشي عليه بسخرية :

- إيه عمدة دي يا جحش إنت.. عمدة عندكم إنتوا بس يا ابن الكلب !

استخفاف حكومة البندر بقيمة منصب العمودية تجاوز استيعابه؛ رغم إفصاحه عن صفته وأصله، لم يعترف الأونباشي بأبيه العمدة المهيب، بل ونعتهُ صراحةً بالكلب، وبالتبعية لن يقيم وزنًا لابنه العمدة المنتظر. لا يستطع الردّ أو المجادلة، وإلّا استحق المزيد من السحل. في ذروة الموقف المخزي، تفاجأ حسانين بدخول العساس إلى الدكان مقابلًا باحترام الجميع، تمنى لو تنشق الأرض وتبلعه. طالعه العساس والشماتة تنط من وجهه، تظاهر بالأسى وأفصح عن نواياه - الكاذبة - لحلّ المشكلة باعتبارهِ كبير التجار. ليرِن على قفا حسانين كف آخر- متفقًا عليه سلفًا مع العساس - أقسى من سابقيه، أعقبه شلوتًا عنيفًا فرشهُ على الأرض.

أغلقت القوة الدكان وصادرت البضاعة، ساقوا حسانين بالكلبشات إلى قسم البوليس، وفي طريقهم مروا به بين الدكاكين بتمهُّل متعمد، في مشهد أقرب إلى الزفّة الميري، والعساس يلحق بهم منتشيًا، محاطًا بجوقة من الأتباع، حشد أكبر قدر منهم، ليوثقوا بأعينهم مذلة ابن العمدة، وانكسار عينه إلى الأبد.

قبل ترحيل حسانين إلى القسم، اهتدى أن يدس في يد تابعه ورقة، مدوّنًا بها رقم تليفون مكتب برهان باشا، وشوّش له أن يتصل به طلبًا للنجدة. اتصل ببرهان باشا الذي تصادف وجوده في مكتبه وأبلغه بما حدث. غضب الباشا بشدة، أجرى اتصالًا فوريًا بالحكمدار هدده بإبلاغ وزير الداخلية - صهره - بهذه

المخالفة الإدارية الجسيمة إذا لم يتم تداركها فوزا؛ فحسانين في حماية البوليس بعد الحكم ببرائته من قتل الشيخ أبو الجود، ولحين صدور قرار عودته إلى النجع. هال الحكمدار الأمر فاتصل بمأمور القسم يُعنفهُ للقبض على حسانين، ويأمره بالاعتذار له، وتعويضه كما يرتضي.

كان الاتفاق بين العساس ومعاون القسم : أن يقضي حسانين الليلة في الحجز تمهيدا لعرضه على النيابة صباح باكر. عند دخول الموكب الحكومي إلى القسم انقلبت الآية تماما؛ تفاجأ الجميع بالمأمور واقفًا بنفسه في البهو يستقبل حسانين، ويبادرهُ معتذرا بشدة عما صدر من رجاله، وعنّف أمامهُ معاون القسم والأونباشية، ثم استضافه في مكتبه يستسمحه. تجاهل المأمور وجود العساس تماما، بل وبعث له ضابطا يتوعده، لما علِمَ أنه من يقف وراء ما أحرجهُ مع الحكمدار!

غادر العساس القسم مصدوما، فيما طارت الأخبار إلى كل ركن في السوق. تناثرت المزاعم أن وزير الداخلية شخصيًا وراء تلك الوساطة، لصلة ما بينه وبين حسانين، وأيّد صدق التكنهات : إعادة فتح الدكان في نفس اللحظة، وترتيب الأونباشية وعمال البلدية للفرش بأنفسهم، وإصلاح كافة التلفيّات، بإمداد البلدية له بصناديق فاكهة وخضروات جديدة، على نفقتها بدلًا من التي تم تكسيرها!

استرد حسانين ماء وجهه، خرج من القسم ظافرًا متضخم الذات. فهِمَ أن العساس يترصدهُ، ولن تكون هذه آخر أفاعيله الخسيسة؛ عقد العزم على دحرهِ ومباغتته فوزا، فاقتحم عليه وكالته ووقف أمامه وجها لوجه. شعر العساس بانحسار العزوة عنه في تلك اللحظات العصيبة عليه، تبدّل في عينيه الزمان والمكان، ارتدا به صوب الماضي البعيد، رأى نفسه في نجع السعداوية، ذلك اللص الجبان الطريد، مربوطا على جذع النخلة يرتعد، وجهه للعمدة المرعب، وظهره العاري مُباح لكرابيج الخفر القُساة.

رفع حسانين عقيرته، وجفّر في وجهه بصوتٍ واثق أمام الجمع الغفير:

- راح أحكيلكم حكاية الراجل الرخيص ده اللي نسي نفسه..

الناس حول حسانين تتزاحم وتتهامس، وهو يحكي عن ماضي العساس وسرقاته، يسرد الوقائع بتشفٍ وتهكّم، خلع عنه أصله وشرفه الملفقين، والعساس لا يزد ويزداد انكماشًا داخل كرسيه، كلام حسانين ينزل عليه أقسى

من كرباج أبيه العمدة، امتقاع وجهه وعجزه الشامل عن الإنكار دليل دامغ على صدق رواية حسانين. كيانه الذي شقي سنين في تشييده تهدم من حوله في لحظات؛ الواقفون ممن كانوا يصفقون له يتغامزون عليه الآن، ويُظهرون إعجابًا صريحًا بحسانين.

شعر حسانين بتخاذل العساس وانهياره التام، ختم كلامه ببصقة وفيرة أغرق بها وجهه، وانصرف متبوعًا بمحاسيب جدد، أغراهم بريق اهتمام الحكومة به. ما كاد حسانين يصل إلى دكانه، حتى أخذت العساس نوبة سعال متصل، وضيق شديد في التنفس مصحوبًا بتشنج عصبي عنيف، ليموت كمدًا بعد دقائق فوق كرسيه. وفي غضون أسابيع فكك بناته تجارته، لتنتهي للأبد أي ذكرى للعساس، ويصير السوق بلا كبير فينفسح الطريق أمام حسانين لبلوغ مكانته الحالية!

وظَّف دهاءه وحنكته بما يتناسب مع طبيعة البندر؛ استوعب أن النفوذ - هنا - لا يتأتى بالقوة المجردة، أو إرهاب الرعية؛ فحكومة البندر- ممثلة في القسم والحي - عنيفة وحاضرة بقوة، ولا تحتاج إلى مناديب مثل العمدة. أما أهل البندر فلهم حسابات أخرى لا شيء معتبر لديهم غير الاستفادة المادية المباشرة، ودرجة القُرب من السلطة، لا يُقدرن قيمة العزوة والعائلات؛ فغالبهم أدرك العساس وقتما دخل السوق حافيًا جائعًا، ثوبه النتن مخروم فوق مؤخرته، وبعدما أثرى وبات صاحب نفوذ، سبحوا بحمده، واخترعوا له - كما أراد - ماضيًا مشرفًا. اقتفى حسانين نهج العساس؛ تقرَّب للمركز بتبرعات كبيرة من ماله الخاص، لتجديد المباني القديمة، وخصَّ مكاتب المأمور والضباط بفرش جديد، نفخ مسئولي البلدية بهدايا قيمة؛ ففوتوا له مخالفات إشغالات الطريق، وتغاضوا عن عدم التزامه بالتسعيرة.

***

.. انتهت الحرب العالمية الثانية، وتحدد موعد الانتخابات النيابية، وانعقدت رغبة القصر- ولم يمانع الإنجليز- بإقصاء حزب الوفد عن الحكم؛ ثأرًا للملك، بعد حادثة 4 فبراير المُهينة، بادر النحاس باشا بمقاطع الانتخابات، وتأهب الديوان الملكي ودفع في دائرة روض الفرج الانتخابية بمرشحه المحامي الشاب وجدي الحاوي، مرشحًا عن حزب الأحرار الدستوريين؛ خلفًا لوالده النائب المخضرم، المتوفى فجأة قبيل موعد الانتخاب بأسابيع، عبد الرحيم باشا الحاوي؛ السياسي القديم ومن كبار ملاك الأراضي. استعان البوليس بحسانين باعتباره على رأس المجموعة الممثلة لتكتلات أصوات الصعايدة في السوق، جهزوا

للمرشح مؤتمزا حاشدًا، نادوا فيه بحياة الملك، ودعمهم للحزب ومرشحه. دخل وجدي السرادق الكبير في أناقة لافتة، وقف بقامته القصيرة وشعره اللامع، يرتج جسمه المدكوك السمين وهو يخطب بحماس وسط تصفيق حاد لا ينقطع.

بعد انتهاء المؤتمر تفاجأ حسانين بأن وجدي يعرفه جيدًا، من الضجة الصحفية الكبيرة التي ثارت حوله وقت مقتل الشيخ أبو الجود. احتفى به ودعاهُ إلى زيارة عاجلة في مكتبه. استغرب حسانين من دعوة وجدي له ومودته المُبالغ فيها، أين هو مِنْ ذلك الشاب القاهري، نجل الباشا المشهور واسع الثراء ونائب البرلمان القادم. وفي المكتب الفخم استهل وجدي كلامه، بالحديث عن «كارمن» ابنة الخواجة هاريس، عزفها له بصديقته المقرّبة، وأنها لا تكُف الحديث معه عن الجميع في النجع، تؤكد له أن الفترة التي قضتها بينهم هي أكثر أيام حياتها إشراقًا. استشف حسانين من الحنين الجارف في حديثه النابض باللهفة علمها، أن إحساسه ناحيتها يتجاوز مدى الصداقة كما يدعي.

فاز وجدي الحاوي في الانتخابات وأصبح نائبًا مرموقًا في البرلمان، توطدت علاقته بحسانين وصارا صديقين. ذات مرة تجرأ حسانين وسأله عن حقيقة علاقته بكارمن، وكأنّ وجدي ينتظر سؤاله ليفتح خزانة أسراره، باح بعشقه المتأجج لها في قلبه، لمعت عيناه وأسرف لسانهُ في الحكي عنها بأنه : عشقها من أول يوم رآها في نادي الجزيرة، تخرج من حوض السباحة نصف عارية مثل حورية البحر بشرتها البيضاء المتوهجة تحت الشمس، شعرها الأشقر مفرود على ظهرها العاجي، صوتها الرقيق يُطيّر عقله، حينما يخرج مغردًا مع لهجتها العربية المكسرة مثل سيمفونية فردوسية.

تقرّب وجدي من حسانين كان من باب الائتناس بسيرة كارمن بعدما افترقا. عثُر مع حسانين على راحة نفسية في الإفضاء بشجونه وعذاباته في عشقها؛ يذكرها معه في أسى، وأنه قد توَدد لها بكل طريقة ممكنة، أغدق علمها بالهدايا القيمة ولم تبالِ، عرض علمها الزواج ولم يشترط إشهار إسلامها، بأن يتزوجها زواجًا مدنيًا، لتبقى على دينها المسيحي، صارحته بأنها : لم تتخذه يومًا أكثر من صديق عادي، وصدمته بأنها تحب صديقه أنور صديق بكل جوارحها، وعلمه أن يحترم رغبتها ومشاعرها. لم يحتمل المزيد من الوجع، فقرّر الابتعاد عنها وقطع صلته بها، وأما هي فلم تتمسك حتى بمجرد صداقته لها وكأنه ظل باهت لا معنى له في حياتها أو قيمة. وفي الفراق؛ بالقدر الذي كرهَ به أنور ازداد تعلقًا بكارمن.

يُقلب أمام حسانين كفيه حائرًا ويسأله متعجبًا؛ كيف أنها لم تلتفت إلى كل

مميزاتهِ ووجاهته اللافتة، ثراؤه ومستقبله المشرق، وطبقته الأرستقراطية المستهدفة دائمًا من الأجنبيات أمثالها. وكيف أنها فضلت عليه الصاغ أنور صديق صديقه القديم، الذي تعرّف عليه قبل عشرة أعوام في حفلة لأم كلثوم، كان وقتها في المدرسة الثانوية، شابًا عاديًا جدًا، تتأرجح حياته بين القاهرة والريف، نجح في الإفلات من نمط حياة القرية، بعدما أثرى والده العمدة من التجارة مع الإنجليز وصار شبه إقطاعي، تمدّن بعد قبوله في الكلية الحربية، بوساطة من السفير البريطاني شخصيًا مكافأة لأبيه على وفائه وتعاونه الدائم مع الإنجليز؛ ليرقص «الرومانس» بمهارة ويشرب الويسكي والشامبانيا، ويسكن أمام نيل الزمالك، ركب سيارة بويك، يسهر في «ميناهاوس» و«شبرد» ببدلة ضباط سلاح المدفعية المنتمي لصفوفه. قابله بكارمن مرة في جروبي ولم يراعِ صداقتهما، أوقعها في غرامه وهو يعلم بحبه لها، لينفرد بها في نذالة منقطعة النظير.

أردف وجدي لحسانين وهو نصف باكٍ؛ أنهما - كارمن وأنور- الآن يعيشان قصة حب عنيفة، اختبأ من عينيهما بالأمس، لما أدركهما خارجين من بوابة فندق «ميناهاوس»؛ حرق قلبه سعادة وجه كارمن المغرد بزهوة الحب، تتأبط ذراعه في هيام، تمشي جانبه كأنما ملكت الدنيا، مشفق عليها من فخ ذلك الثعبان الماكر. أكد له أن كارمن؛ حسنة النية تجاه من تعتقده حبيبًا لها، لا تعرف حقيقة أنور التي يفهمها هو جيدًا. أنور؛ يبدو من بعيد رائعًا مبهرًا، يتوهج مثل كتلة اللهب يجذب من يراه، وما إن تتصل به حتى تحترق تمامًا، متمرد مثل عرابي باشا، وأفكاره متطرفة، يكره بني جنس من تعشقه إلى حد العبادة، يود لو فتك بكل إنجليزي تراهُ عينه، ولا يستبعد عليه أن يقتلها يومًا، أو الدفع بها إلى حافة الجنون؛ فهو بلا قلب ولن يُقدّر حبها له.

تذكر أن تلك الرواية تمت تحت اعداد مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة.

أما حسانين فكان بارعًا في تضميد عاطفة وجدي المثخنة؛ يصيغ له الحكايات عن كارمن أيام مراهقتها، وقتما كانت تعيش في نجع السعداوية، ليجعله يراها تلك البريئة الفاتنة، وينسيه جرحها له في شبابها، فيردهُ إلى عشقه المجنون بكامل كيانه؛ يعلم أن ارتباط وجدي به باعثه حب كارمن المشبوب في أعطافه. يحكي له عن حياتها : كانت تكتب وتقرأ كثيرًا، مغرمة بحكمت الغازية عشيقة أبيها - مستر هاريس - فقد حلّت محل والدتها بعدما توفيت في الكامب متأثرة

بالالتهاب الرئوي وتركتها طفلة.

ترقد عارية فوق سطح الكامب حتى تتلوح بشرتها بالشمرة لتصير مثل حكمت، ثم استحى أن يذكر له أن والده العمدة السيد هو الذي جاء بالغازية حكمت لمستر هاريس، ثم برأ نفسه أمام وجدي - ولي نعمته الجديد - من خطيئة الاقتراب من معشوقته ومعذبته، فربما تترامى لأذنيه الإشاعة المنتشرة في النجع ومجاوراته ويصدقها؛ من وجود علاقة جسدية بينهما فقال له يومًا « لحم الخواجات مش بتاعنا.. كنت أكش لما أشوفها عريانة قدامي.. أحس نفسي مش راجل قصادها».

رأى حسانين وجه القاهرة الحقيقي البرّاق من خلال صديقه النائب، مهّد له دخول المزادات الكبرى وباستغلال نفوذه وعلاقاته برجال القصر صار يكسبها، أدخله بوابات السرايات وجلس في صالونات القصور وعزفهُ على الباشوات وصادقهم، فإذا بكيان حسانين أبو العمدة يختفي، ويتهذّب عن ذلك الجلف الذي جاء هاربًا من نجع السعداوية قبل أعوام، إلى رجل آخر أدهش ابن أخيه زين!

***

.. زين؛ يتابع عمه بإعجاب وهو يوجه عماله وموظفيه - من الأفندية - بالعمل في الوكالة. توقفت سيارة حسانين «الكاديلاك» السوداء الفخمة أمام الوكالة، هرول السائق ليفتح له وزين الأبواب الخلفية. زين مأخوذًا بالموقف كله : يركب سيارة فخمة مثل سيارة برهان باشا، سائق من الأفندية يفتح لهما السيارة في احترام مثل كبار الأعيان. رأى عمه الجالس جواره بنظرة مختلفة عن تلك التي طالعه بها وقتما تقابلا، فُتن بهيئته الجديدة بذات القدر الذي كرهه فيها في البداية.

أخبره عمه أنهما سيذهبان إلى محل جروبي في مقابلة سريعة مع سكرتيرة وجدي الحاوي، الذي سيساهم معهم في شراء الفابريكة، لاستلام المبلغ منها نقدًا ثم يتوجهون إلى فيلا هاريس لإتمام الشراء. غاصت بهم السيارة في قلب العاصمة، ومن داخل «الكاديلاك» اختلفت نظرة زين إلى الشوارع، لم يعد يرمقها بذات التهيب المريع الذي اكتنفه ليلة أمس عند وصوله من النجع، بل أصبح يرى الشوارع النظيفة والمحلات الأنيقة باعثًا للبهجة.

نظرات إعجاب المارة بالسيارة الفخمة، والتطلع لمن بداخلها تفتح في نفسه آفاقًا جديدة، توارى الحقد على أهل البندر وانفسح بدلًا منه رغبة وتطلع نحو

حياتهم المبهرة والمشاركة فيها، تذكر وقتما أعجب بهم أيام الطفولة، وحينما لم يملك وقتها أسباب المحاكاة أو التقليد، انزوى على نفسه كارهًا لهم، أما هو الآن - في كنف عمه - على مشارف ولوج ذلك العالم البراق.

خطر على باله أبوه العجوز والمأزوم في صراعات النجع التي لا تنتهي، ولكنه لم يشعر بمثل ذلك الحماس والتحدي المتوقد فيه قبيل مقابلة عمه، بل توارى في نفسه جانب كبير من الرغبة في هزيمة غرمائهم المتطاولين عليهم. توقفت السيارة بهما أمام جروبي، ودخلا المحل سويًا، مشي حسانين واثقًا من نفسه لدرجة بعيدة، عارفًا طريقه في المحل الفخم، ورحب العمال ومضيفو المحل بحسانين في احتفاء كبير فهو من أهم زبائن المحل وأكثرهم إغداقًا عليهم بالبقشيش.

بعد دقائق، جاءت السكرتيرة؛ عشرينية فاتنة أنيقة الملبس. جلست معهما، ورحبت بحسانين في احترام زائد، ولما عرف لها زين بأنه ابن أخيه، بادلته نفس تقدير عمه. شعر بها زين براقة جانبه مثل اللؤلؤة، ولم يلحظ في نظراتها شيء من التحقير المتوقع منها، كالذي رآه في عين بنت وكيل الوزارة أيام المدرسة الإلزامي في البندر. بل تفاجأ بأن الفتاة تتجاذب معه الحديث، يرد عليها وهو خجلان من لهجته، فحاول تطويعها على طريقة عمه التي سمعها منه قبل قليل، تمنى لو ذاب في جلبابه وعمامته الضخمة وصار أفنديًا بقدرة قادر

تمادى في نفسه شعور نحوها بالانجذاب ليس إلى جمالها، بقدر الرغبة في التشبث بطبقتها الراقية وإخضاع بندريتها المتعجرفة، ثم طارت به أمانيه إلى أبعد من مجرد الجلسة المجردة، وهي تتحدث أمامه تخيلها زوجته، وفي ثوان رآها في بيته، وشاف نفسه في بدلته الإفرنجية بشعر مصفف لامع وعطر فوّاح، ارتطمت لحظتها أمانيه بثوابت كان أقامها مع أصدقائه عن كل البندريات أنهن باغيات فاسقات، كيف سيبرر لذويه ورفاقه زواجه من بندرية، سارع يرسم في ذهنه خطة أن يخفي خبر زواجه منها، ثم يستقر في القاهرة وينسى النجع وأيامه، ثم يصير مرموقًا مثل عمه، وفي ذروة أحلامه الطارئة تذكّر نكبته مع فاطمة وسمع نواحها في أذنه؛ يوم جاءت له الزريبة في تلك الليلة المشئومة التي تأكد فيها حملها منه؛ تنتحب له بخرقة، تهبد على بطنها بعنف، جثت على الأرض تلطم خدها.

جاء حسانين وشرب معهما القهوة، استلم من سكرتيرة وجدي الحاوي المبلغ المالي، ولما انصرفت الفتاة، قام لكي يتصل بفيلا مسترهاريس من تليفون

المحل لتأكيد الموعد قبلما يتحرك إليها.

***

.. رنّ الهاتف في فيلا مستر هاريس، سارع الخادم السوداني يزد، وذهب إلى كارمن الجالسة في حديقة الفيلا، ليخبرها بأن حسانين هو المتصل. قامت ترد عليه ورحبت به في الموعد المتفق عليه، حادثته بشيء من التوتر لم يخل من ود تأثر بالحنين القديم لحياتها في نجع السعداوية. لم تقابل هاريس منذ وصلت قبل يومين من لندن نكرانًا وكراهيةً له. وكذلك لم تجرؤ على دخول غرفتها لما تحمله بين جدرانها من ذكريات مع أنور صديق لا تقوى أن تواجهها، تنام في غرفة بالطابق الأول من الفيلا، لم تكن تدخلها أبدًا أيام ما كانت تعيش في مصر. قررت الآن مواجهة كل ما تخشاه، بالذات قبل مجيء حسانين فهو جزء من تلك الذكريات والحقائق البغيضة والمؤلمة، صعدت إلى غرفتها القديمة في الطابق العلوي التي عاشت فيها حياتها السابقة، ووقفت تنتظر وصول حسانين.

*****

7

لندن

طرق الخادم على هاريس باب الغرفة ودخل، أخبره بأمر اتصال حسانين واقتراب وصوله..ثم انصرف. دحرج كفيه فوق عجلات كرسيه إلى الشرفة، ومنها مذ بصره إلى النيل الفسيح، على صفحته الساكنة، تمثلت له مسيرة حياته صعودًا وهبوطًا؛ منذ كان شابًا معدمًا في لندن، ثم مجيئه إلى مصر- المستعمرة البريطانية - قبل الحرب العالمية الأولى، استرجع يوم مقابلته الأولى مع أسرة «أودونيزي» تاريخ لا ينساه أبدًا، تغيرت فيه حياته؛ صباح يوم 12 يناير عام 1912 تذكره بكّل تفاصيله..

***

.. لاح أمام هاريس قصر«أودونيزي»؛ الأفخم والأعرق في لندن. يرتعد كلما اقترب من البوابات الكبيرة؛ لم يتخيل يومًا أنه - وهو الفقير العاطل - سيقابل اللورد «مايكل أودونيزي» رجل الدولة المقرب من الأسرة المالكة والسياسي المهيب. أخبرته أمهُ - الخادمة في القصر- مساء أمس، أن اللورد بنفسه أبلغ مدير شئون القصر بدعوة ابنها لمقابلته، لأمر لم يفصح عنه. دار حول القصر

توقف أمام باب الخدم الجانبي وطرقه. انفتح الباب القصير أطلّت منه أمه - في ثوب الخادمات الموحد في القصر- وأشارت له بالدخول. أجلسته في المطبخ، وصعدت إلى مكتب مدير شئون القصر في الطابق العلوي؛ لتخبره بوصول ابنها، منتظرًا شرف مقابلة اللورد.

مشت الأم العجوز في ردهات القصر تائهة ممتقعة الوجه؛ لم تتعشم أبدا في خير يأتي من وراء ابنها هاريس النذل، بل وصارت تبغضه بعدما تسبب في وفاة أخيه الأكبر قبل عامين، أثناء تطوعه للدفاع عنه خلال إحدى مطاردات الشوارع من رجال سرقهم؛ فإذا بهاريس يفضّل الفرار بالمسروقات على حياة أخيه، ليتركه ينزف حتى مات متأثرا بغزات السكاكين.. مرعوبة من احتمال ظلت ترجحه بقوة : ارتكاب هاريس لجريمة دفعه إليها سلوكه المنحرف سواء بالنصب والسرقة، وأن المجني عليه اشتكاه إلى اللورد، فجاء به ليؤدبه تمهيدًا لسجنه والتنكيل به، وبالتبعية ستفقد هي وظيفتها وتُحرم من أجر خدمتها في القصر مصدر دخلها الوحيد والذي يستولي على أكثر من نصفه مُرابٍ رهن له زوجها البيت قبل وفاته، نظير مال اقترضه منه ليتعالج به من مرض اعتلال القلب المزمن؛ حائك الملابس الفقير- والد هاريس - بالكاد يُدبِّر لهم قوت اليوم بيومه.

بعد وفاة الأب؛ والأم تنعي على هاريس طيلة الوقت نكوله الدائم عن مساعدتها، فعبء الإنفاق على البيت تتحمله وابنها الأصغر- قبل مقتله - كاملًا؛ كلما التحق هاريس بعملٍ فقده، بعدما ساءت سمعته في سوق العمل لداء السرقة المتأصل فيه، فرغم ذكائه أحجم أصحاب الأعمال عن توظيفه. عادت الأم من مكتب مدير شئون القصر إلى ابنها البائس، رمقته في أسى لمّا وجدت عينيه زائغتين من فرط الجوع، فبيتهما خالٍ من الطعام تقريبًا، تعلم أنه لم يأكل من البارحة سوى كسرات من الخبز الجاف، قدمت له خبزًا وقطعة لحم، فالتهم طعامه بنهم مثير للشفقة!

بعد دقائق؛ جاء لهما أحد الموظفين يبلغهما بسماح اللورد بالمقابلة في مكتبه. هبّ هاريس واقفًا يمسح من على فمه بقايا الطعام بأنامله، يعدّل ملابسه الرثة، وأمه تبتلع ريقها ذعرًا. عبرا بوابة المطبخ، ليقابلهما مدير شئون القصر عند ممر البدروم، ودخل بهما البهو الفسيح بسقوفه الشاهقة وقبابه الزجاجية. عين هاريس الطامعة تتوه بين فخامة الأثاث وتقفز فوق التحف الثمينة. توقّف بهما أمام غرفة المكتب ودخل، عاد بعد ثوانٍ آذنًا لهما بالدخول وانصرف. تقدما في خطى مرتعشة، ليقفان أمام اللورد القاعد وراء مكتبه صامتًا متجهم الوجه.

وعلى الأريكة المجاورة زوجته الكونتيسة تتطلع إليهما بملامح حزينة. قام اللورد يتمشى حول المكتب على مهل، ثم جلس إلى جوار الكونتيسة، وبلا مقدمات سأل هاريس دون أن يلتفت إليه :

- هل تعرف ابنتنا الليدي ماري ؟

السؤال المباغت فاجأ هاريس؛ حدثته نفسه فورًا بسخرية «مَنْ في لندن لا يعرف الليدي الماجنة ماري أودوينزي ؟». ولكنه سارع يفرد على ملامحه أمارات التوقير وأحنى رأسه في خضوع وهو يجيب بنبرة متخشعة :

- لندن بأسرها.. تعرف أنها ابنة كريمة لفخامة اللورد الموقر مايكل أودونيزي..

فهم اللورد من اقتضاب رد هاريس وسرعته؛ أنه حتى الصعاليك - أمثال هاريس - تعرف سلوك ابنته المشين، سيرتها محمولة فوق الألسنة، بعدما نسج المجتمع اللندني مئات الحكايات عنها وعشيقها الدبلوماسي الفرنسي «لابان بوانكاريه» تواترت أكثر الروايات تأدبًا أنه ضاجعها عشرات المرّات.

لا يسامح اللورد نفسه، كلما تذكّر أنه المتسبب في حدوث تلك المأساة، بعد اللقاء المشئوم بين ابنته ولابان العام الماضي؛ حين دعا أعضاء السفارة الفرنسية في لندن على حفل ومأدبة عشاء رسمية أقامها في قصرهِ؛ بمناسبة التقارب والتحالف بين جمهورية فرنسا وبريطانيا العظمى، بعد بزوغ الخطر الألماني مجددًا وتهديده لمصالحهما. كان على رأس المدعوين الدبلوماسيين «لابان بوانكاريه» ابن عم رئيس الجمهورية الفرنسية «ريمون بوانكاريه» وقد لاقى الشاب الأنيق احتفاءً واستقبالًا خاصًا من اللورد..

* * *

وفي الحفل؛ تألّقت ماري بفتنة أخّاذة وابتسامة ماسية، توهج جسدها البضّ بين طيّات فستانها العاري فوق كتفيها الضئيلتين الجميلتين. تمشي بثقة تيّاهة بجمالها ولا تلوي على أحد. غير أن لابان بوسامته الملفتة وسمته الأرستقراطي استأثر بعينيها، في بدلته «الإسموكن» السوداء بدا ممشوقًا كالسيف المُرهف؛ واقفًا بالقُرب من فرقة العَزف بيدهِ كأس شامبانيا. لم تمنع نفسها عن التطلع إليه في انبهار؛ التقط لابان فورًا شغف الحسناء المفضوح بمتابعته.

اندمجا مع بعضهما بعد حديثٍ قصير بادر به الدبلوماسي الوسيم، قبلما يأخذ يدها ويرقصا معًا على إيقاع موسيقى «الفالس» الساحرة؛ تناجت العيون

تتساءل في صمت وإلحاح عما وقع في نفسيهما بتلك السرعة.. اقترب الجسدان بلا حياء حتى كادا يتلاحمان، أنامله تتحسس استدارة خصرها وتنغرس في لحم ظهرها برفق، أسبلت عينيها ناحيته تتأمل وجهه الباسم، وشفتيها تنفرجان تحت وطأة أنفاسها المبهورة، فيما انتفخ عرقًا جانب رقبته من الانفعال والشغف.. ازدادا اقترابًا بأحاسيس ملتهبة وهبّت فيهما شرارة الرغبة، وفي ذروة المشاعر الوليدة تواعدا على مقابلة صباح اليوم التالي، لم ينم ليلتها كلٌ منهما شغفًا بالآخر وانتظارًا لموعد اللقاء الباكر.

مرت ساعات الليل عليهما كأنها دهر، وفي ضباب الصباح المتحلق فوق حدائق «هايد بارك» اختفيا بين عشرات العشاق المتناثرين حولهما، لا يكترثان بالرسميات المفروضة عليهما كشخصيات عامة ومعروفة في لندن، ومع أول قُبلة وراء الأشجار انصهرا عشقًا، وفي آخر النهار أخذها لابان إلى فيلا تتبع السفارة الفرنسية، وفي مخدعه أسلمته الليدي جسدها قربانًا لغرامها. بعد شهرين من اللقاءات الخفية المتكررة في عش غرامهما، انفرست نطفته في رحمها تنبئها بحمل من حبيبها، احتفلا بحصوله، وأبدت له رغبتها في الاحتفاظ بالجنين!

صارحت أمها بالحمل، بعد أن حكت لها بجسارة عن تفاصيل ما حدث مع لابان، ورفضها لفكرة الزواج الكنسي لرجعيتها وعدم اقتناعها بها، ثم أكدت نيتها أن تلد الطفل وتربيه ولو بدون زواج. قابلتها الكونتيسة الإنجليكانية - المتشددة - بثورة عاتية لم تستطع ماري الصمود أمامها. أخبرت الأم المذهولة اللورد بالنبأ المفجع، سارع ينفي ابنته في غرفة بعيدة بالقصر حتى يتدبر الأمر المشين.

اقتحمت الكونتيسة غرفة الابنة المارقة، نظرت إلى كتبها بحقد واحتقار: مسرحيات شكسبير وبرنارد شو وروايات تشارلز ديكنز وفيكتور هوجو أشعار فولتير وراسين وكورنيه، ولعنت مؤلفيها المحكي عنهم في الكنيسة باعتبارهم مفسدين للدين، طالما اعتقدت أن قراءتها ستفسد أخلاقها وصحة اعتقادها الديني وإيمانها بالمسيح، وتشاءمت أكثر لما وجدتها تكتب الخواطر والشعر ثم تحققت لها ظنونها السيئة حين كلمتها بجرأة عن رجعية الكنيسة وتمسكها بمعتقدات بالية تدعي إنها مقدسة.

تؤكد لأمها أن الزنا المحرّم حبٌ وعشق، وبل تتفاخر بحملٍ غير شرعي وتنوي إتمامه. أمرت الخدم بجمع الكتب وفتحت درج مكتبها أخذت أوراقها وكوّمتها فوق الكتب، وفي غرفتها ألقتهم - الكتب والأوراق - داخل نيران المدفأة. قبضت أناملها المرتجفة على الصليب المعلق في رقبتها، وركعت أمام تمثال المسيح

الرخامي تذرف الدموع، تترنم بالإنجيل طلبًا للمغفرة على تقصيرها في تربية ابنتها الفاسقة.

سترًا للفضيحة؛ استدعي طبيب العائلة، اقتحموا - الطبيب والأم وخادمتها المقربة والدة هاريس - عليها ليلًا غرفة منفاها بالقصر تكالبوا عليها، قُيدت ساقاها مفتوحتان فوق سرير طبي جيء به من الباب الخلفي للقصر سرًا، تم تخديرها وفي رحمها مزّق الطبيب الجنين بمقصه لأجزاء دامية، ثم كشط من داخلها بقاياه في طبق معدني. فاقت تبكي قهرًا على جنينها المجهض، ونصفها السفلي ملوث بالدم. بعد أسبوعين استردت شيئًا من صحتها، عادت لحياتها الطبيعية واحتارت لاختفاء لابان المفاجئ من لندن. سألت زميله المقرب في السفارة الفرنسية، هذا جزعها لما أخبرها بأن : الرئيس الفرنسي استدعاه من لندن إلى باريس، وألحقه بعمل إداري بالقصر الجمهوري؛ تعنيفًا له بعدما وجه والدها اللورد أودونيزي لومًا - سرًا - إلى الرئيس الفرنسي أبلغه له رئيس وزراء بريطانيا، يستنكر فيه تصرفات ابن عمه مع ابنته.

لم يخفَ السر طويلًا؛ وصارت أسرة أودونيزي ملاحقة بفضائح ماري، التي لم تزهد لابان رغم ما كابدته من آلام بسبب علاقتها به، بل ازدادت تعلقًا بحبه وجاهرت بذلك للكافة. تعاطفت معها بشدة إحدى صديقاتها لحزنها العميق وتدهور صحتها المستمر بعد غيبة القابض على جذور مشاعرها، فتواصلت مع لابان بواسطة قريب لها مقيم في باريس، رتبت لهما - ماري ولابان - مقابلة سرية في بيتها سارع إليها لابان!

لما رأت ماري حبيبها لابان، ارتمت بين ذراعيه تبكي، شعر بجسدها هشًا يرتجف كالورقة وكأنه بلا وزن، تأسى لهزالها وشحوبها، انحنى يقبل يدها عرفانًا لكل تضحياتها من أجله.

صارحها آسفًا بعدم قدرته على الزواج منها، بناءً على أوامر صارمة من ابن عمه الرئيس لما فاتحه في أمر زواجه بها؛ فهو كاثوليكي وهي إنجليكانية، وأفهمه : أنه وماري، من الرموز السياسية للدولتين العظميين، والزواج بين طائفتيهما إن كان غير محرم ولكنه بذات الوقت غير مُحبذ؛ وإذا تم الزواج سيثير رجال الكنيستين المتضادتين تاريخيًا ومذهبيًا، ولا سيما إذا علموا بأمر العلاقة المحرمة بينهما السابقة على الزواج، فيستدعون تلقائيًا أصداء الحروب القديمة بين الطائفتين؛ والقيادة السياسية في البلدين تحتاج إلى دعم الكنيسة الرسمية في ذلك التوقيت الحرج؛ فأوربا كلها ترقص فوق برميل من البارود، والتهديد

الألماني المرتقب سيعصف بحالة السلم المسلح آجلا أم عاجلا.

ماري تسمعه وهي محطمة، أدركت أبعاد الأزمة الكبيرة المقترنة بأزمتهما الأصعب، لعنت أمامه الجميع: الملك، والكنيسة، والحكومة، وأوربا كلها، وأخبرته أنها الآن أكثر إصرارًا على مواجهة كافة المستحيلات معه وشغفًا بحبه، كبرت في نفسه بمنطقها وإصرارها. أشعل كلامها جذوة التحدي في نفسه فازداد بها تعلقًا وتمسكًا، أقسما ألّا يستسلمان للقدر. في ذات الليلة؛ عاد لابان إلى باريس مفعمًا بالحب، وكله أمل أن لا تحدث حرب ويتزوجان في هدوء.

وفي أروقة السياسة اللندنية؛ استغلّ خصوم اللورد فضائح ابنته، لطّخوا بها سمعته، ونالوا من مصداقيته عند الملك الشاب جورج الخامس، ووشي أحدهم في سمعه بأن : فضائح ماري ذاعت وأحدثت أثرًا سيئًا في الشارع الإنجليزي؛ باعتبارها - ماري - من بنات الطبقة الحاكمة، وأمها الكونتيسة - قريبة الملكة فيكتوريا - من خادمات الكنيسة المخلصات، وزاد الموقف اشتعالًا أن هذه الانحرافات الأخلاقية مع أحد الشباب الفرنسيين؛ العدو التقليدي للأمة الإنجليزية. تراجع الملك عن نيته في الدفع باللورد مايكل أودونيزي؛ كرئيس لمجلس اللوردات. قرّر الأب إسكات الجميع بتزويج الابنة سبب نكباته؛ ولكنه تفاجأ بأبناء النبلاء واللوردات قد جفلوا منها ونبذوها بعدما رفض أغلبهم حينما تقدموا للزواج منها؛ عساه يظفر لابنته الفاتنة بأحد ولاة العهد الملكي، أما الآن فلن يرضى حتى التافهين منهم بها - ماري الماجنة - زوجةً له، ولو بعد مساومة مُجحفة ومُذلة لأسرة أودونيزي العريقة.

إزاء انغلاق جميع الأبواب في وجه اللورد المأزوم، لم يجد أمامه غير السماع لصوت أمها المقهورة، والموافقة على اقتراح رفضه منها مرارًا؛ أن يُزوّج ماري من هاريس؛ ابن خادمة القصر الموثوق فيها والمقرّبة إليها. على مرارة الاقتراح كان له وجاهته؛ لن يرفض ذلك المغمور الزواج من سليلة أعرق البيوتات الإنجليزية، خلاف أنه لَنْ يجرؤ على البوح بعرض اللورد عليه؛ فيقتسم معه فضائح الابنة الفاجرة، ثم الترتيب لهما بالفرار بعارها من وجه المجتمع الإنجليزي إلى آخر العالم؛ بتعيين هاريس موظفًا في حكومة المستعمرة المصرية؛ الوظيفة فرصة ذهبية لأي شخص، وتحفظ لابنته - مع هاريس - الحد الأدنى من الحياة الكريمة، بفضل نفوذ وهيبة منصب المعتمد البريطاني، صديقه اللورد كرومر قبل رحيله عن مصر صارت الحكومة المصرية تعيّن صغار الموظفين الإنجليز رؤساء على المصريين بمرتبات ضخمة.

.. نظر اللورد في امتعاض إلى الخادمة وابنها هاريس صهره المحتمل، يرى فيهما خيارات المستقبل الأكثر وجفا ومذلة. ساءة حذاء هاريس القديم وبشرته الشاحبة من سوء التغذية، آثر عدم الخوض في تفاصيل مخزية معه، ليخرج صوته منكسزا وهو يشيح بوجهه في عجز عن التطلع لهاريس من الأسى:

- يسعدني قبول زواجك من ابنتي ماري.. وأن تسافرا سونًا إلى المستعمرة المصرية حيث تستلم عملك الجديد كموظف في ديوان الحكومة المصرية..

انفرجت أسارير الأم وشهقت في سعادة، وراحت تتطلع في عدم تصديق إلى سيدتها الكونتيسة التي راحت في نوبة بكاء عنيفة. بينما بُهت هاريس واتسعت عيناه في ذهول، لكنه فهم سريعًا الصفقة التي يعرضها عليه اللورد : زواجه من الابنة سيئة السمعة، مقابل وظيفة براتب كبير في مستعمرة بعيدة ومتخلفة مثل مصر؛ سمع كثيزا عن الوظيفة أنها: غنيمة لأصحاب الصلات القوية لما فيها من امتيازات كبيرة، العمل خفيف لازدحام الموظفين في الديوان الواحد، خلاف أن الموظف لا ينفق شيئًا من راتبه الضخم، فأغلب مصاريفه الشخصية، وتكاليف سكنه وانتقالاته تتحملها الحكومة المصرية؛ عرفانًا منها بقيمة وأهمية الموظف الإنجليزي. لَهِجَ مرحبًا بعرض اللورد؛ سيحقق به صعودًا اجتماعيًا سهلًا وسريعًا، وتمادى طموحه اللحظي؛ في المستعمرة البعيدة، سيلجم جموح الليدي الخسناء المتمردة، ولعله يجعلها تحبه وتنسى لابان.

لما علمت ماري من أمها بأمر الزواج ثارت واعتصمت في غرفتها رفضًا، اقتحم اللورد عليها غرفتها وهددها بحزم بأن : لابان ليس بعيدًا على المخابرات البريطانية وهو نائم بسريره في باريس، بإمكانهم وضع السم له في اللحظة التي يكلمها فيها الآن، والتخلص منه خلال دقائق، وافقت، ثم كتبت رسالة إلى لابان سلمتها إلى صديقتها لتوصلها إليه؛ حكت له فيها عما حدث والتفاصيل التي علمتها - حتى وقت تحرير الرسالة - عن الزواج والرحيل إلى مصر وأنها ستكون في القاهرة خلال أسابيع وستحاول أن تراسله.

انعقد الزواج الكنسي بدون احتفال يُذكر وفي أجواء تغلفها السرية؛ فلا تقل نكبة زواج ماري أودونيزي من ابن خادمتها عن فضيحة لابان المدوية. لكي يُحدَ مِنْ تهامسات القصر سدد اللورد قرض المرابي لوالدة هاريس، وأعفاها من الخدمة في القصر نظير مكافأة كبيرة لنهاية الخدمة، غيابها عن الأنظار يُنسي الكافة الأمر تدريجيًا، واعتمد لها راتبًا شهريًا يستمر حتى وفاتها. سرّع اللورد بإجراءات تعيين هاريس، بوساطة لدى وزير المستعمرات البريطانية ألحقه

بالوظيفة، وبعد أسبوع تحدّد موعد الرحيل إلى مصر.

الباخرة تُقلع فجرًا من لندن إلى ميناء بورسعيد، حاشت الحسرة اللورد والكونتيسة عن مرافقة ابنتهما إلى الباخرة لوداعها، لتقف ماري على رصيف الميناء وحيدة تتألم بين الخدم وهم يحملون لها حقائبها. ومع أول صافرة للباخرة إيذانًا بالإقلاع، دخل هاريس على ماري جناح الدرجة الأولى الفاخر المطلة نافذته الواسعة على القنال الإنجليزي، حاول هاريس تقبيل عروسه الفاتنة الصامتة دائمًا؛ عساه يدخل بها، لتفاجئهُ بصفعة عنيفة من كفها الصغير على وجهه. سمع صوت الليدي لأول مرة هادرًا، تصرخ وتدفعه عنها بشراسة وإصرار كالقطة البرية :

- لا تلمسني يا قذر.. أحب لابان وحملت منه وأنت أول العارفين.. أكرهك مثل سيدك اللورد الذي اشترى دياثتك بوظيفة أيها الرخيص..

انكمش أمامها وجرجر نفسه إلى الخارج بعدما طردته، وأقام كسيرًا في إحدى غرف الدرجة الثالثة. والباخرة تتأرجح به فوق أمواج المحيط الأطلنطي لاحقته كل التصورات السيئة عن حياته القادمة، إذ استدعى كل ما سمعه يتداول في الشارع والحانات عن مستعمرة مصر البائسة؛ أنها : مثل الهند؛ بلد نائية وحارة قد يمرض فيها بأي وباء فتّاك أو يصاب بالحمى ويموت؛ فأهلها : زنوج أقذار متأخرون وشعورهم مقملة، مرضى بيرقات الديدان تجعل بولهم دم، ثارت حولهم قبل أعوام ضجة غير مبررة، لإعدام الجيش الإنجليزي مجموعة من الفلاحين السود في قرية اسمها «دنشواي»؛ بعدما تجرأوا على قتل جنود جيش بريطانيا العظمى، وعلى أثرها تم إعفاء اللورد «كرومر» من منصبهِ كحاكم قوي للمستعمرة، رغم تكريمه بعدها في مجلس العموم، ومنحه مبلغ خمسون ألف جنيه إسترليني، نظير خدماته الجليلة للمملكة البريطانية العظمى في مصر.

وبعد مسيرة أسابيع لم يعاود خلالها المحاولة مع الليدي، أو حتى يجرؤ على رؤيتها، فلم يقابلها إلّا صباح يوم الوصول لمصر رست الباخرة بهما في ميناء بورسعيد، نزلت معه في جفاء وتحفز ومن الميناء أقلتهما سيارة تابعة للحكومة المصرية إلى القاهرة

* * *

.. وفي القاهرة؛ أقام هاريس وماري في فيلا صغيرة بحي العباسية الراقي، خصصتها لهما الحكومة المصرية. استلم هاريس وظيفته بديوان وزارة الأشغال

العمومية. من اليوم الأول؛ تفاجأ بالموظفين الإنجليز في الديوان - وغالبهم من أبناء الطبقة الراقية - يعاملونه بطبقية شديدة، فقد عرفوا أنه ابن خادمة في قصر«أودونيزي»، حقّروا من شأنه ونبذوه من جلساتهم، تناقلوا الأحاديث أمامه بفجاجة عن قصة زواجه من «ماري» الداعرة؛ أغلق مسام إحساسه متجاهلًا وقاحة تصرفاتهم معه، وانخرط في العمل الحكومي بجديّة. طوّر- اللص القديم - خبراته في فنون النصب إلى فهم ألاعيب العمل الوظيفي، أتقن حبك الوشايات وأساليب فرم الخصوم، تفوّق على جميع أقرانه من الموظفين الإنجليز وغيرهم من الأجانب، تملق رئيسه الإنجليزي وكسب ثقته، فقرّبهُ من الدوائر السياسية، فاختاره مندوبًا دائمًا للوزارة في الجمعية التشريعية (البرلمان).

بعد وقتٍ قصير؛ تغيّر هاريس تمامًا عن ذلك الصعلوك ربيب حواري لندن والمتسكع في حاناتها القذرة، ليصير موظفًا مهمًا له شخصية قوية. اتساع نفوذه في كافة الوزارات غطى على أي شعور قديم لديه بالضعف والهوان، وأحلّ مكانهما الثقة والثبات. كمن يعوّض شيئًا ناقصًا في نفسه؛ غالى في الاعتناء بأناقته لينسى هيئته القديمة في ملابسه البالية، غطى نفسه برداء الهيبة، بعدما كان يرتعد لمجرد رؤية عسكري الدرك في لندن. يتناول الوجبات الثلاثة في بذخ لكي ينسى قرص الجوع لأحشائه، لم ينفك أيضًا عنه داء السرقة المتأصل فيه؛ راتبه الضخم لم يُشبع جيبه، انبرى يسطو على أموال الوزارة السائبة؛ وهو على ثقة كاملة أن وزير الحكومة المصري لن يجرؤ على محاسبته أو اتهامه، ليتحول من نصاب رخيص ومطارد في لندن، إلى لصٍ مرموق في مصر!

وما أسعده أن وجد سبلًا لإنفاق المال؛ إذ وجد القاهرة - عكس ما توقع - بلدًا عصريًا إلى حدٍ كبير: شوارعها نظيفة ومرصوفة، فوق أرضها تجري قطارات سكة حديد متطورة، مباني وسط المدينة على الطراز الفيكتوري، لديها مطاعم ومحلات فخمة، وتمتلك دارًا للأوبرا.

وأن المصريين ليس كما تخيلهم قبل مجيئه : زنوجًا فطسى الأنوف مثل العبيد الأفارقة، بل فيهم ممن يُحسن مظهره الخارجي، بيد إنه نسب كل مظاهر التحضر إلى فضل الوجود البريطاني في مصر؛ إذ رأى المتمدن فيهم لا يرفُل في الجلباب، أو يعجب بلبس العباءة ويلف العمامة الأزهرية، إنما يزهو بأناقة البدلة أوربية الطراز المصنوعة من الصوف الإنجليزي الفاخر ويتعايق بالكرافتة أو البابيون، وأما المتفتح فيتمرد على الطربوش العثماني باعتباره تقليدًا باليًا. يستكثر على المصريين - سرًا وجهرًا - كل هذه العصرنة، يراها كريهة عليهم ولو

كانت أوربية خالصة.

يشمئز من هيئة الباشوات المصريين الفخيمة، ويرى أن الحقول مكانهم الطبيعي، يشعر بالقرف الشديد وهم يجلسون جانبه في كلوب «محمد علي» يتناولون الطعام الأوربي ويأكلونه بالشوكة والسكينة، ينزعج بشدة حين يسمعهم - وهم خاضعون وقبلهم الخديو للإمبرطورية العظمى - يتكلمون عن السياسة الأوربية، أو تأتي على ألسنتهم سيرة جلالة الملك جورج الخامس ولو بالاستحسان.

لم يتزحزح لحظة عن عنصريته الشديدة والاحتقار المتأصل في نفسه ناحية المصريين؛ باعتبارهم جنس رديء، ولكنه في ذات الوقت يروق له التعامل معهم، إذ وجد جميعهم - باستثناء مجموعة تتنمر به مغضوب عليهم يُطلق على أفرادها بقايا العرابيين - يعاملونه باحترام كبير ويقابلون عجرفته عليهم بتبجيل وتوقير يعلم أن تقديرهم الكبير له لمجرد أنه إنجليزي، ودون أي اعتبار آخر.

ازدهرت شخصيته السياسية، وما زاده ثقة في نفسه ما طرأ على علاقته بماري، على تجاهلها له أغلب الأحيان ورفضها مشاركته غرفة نومها، وجد تعاملها معه - وإن خلا من الود - يزداد هدوءاً وسلمية، كان كلما عاد لمنزله وجدها هادئة، وأحيانًا تتجاذب معه أطراف الحديث!

* * *

.. انشرح هاريس؛ لما ظهر له انكسار ماري بشكل واضح، فهم أنها اضطرت بعد شهرين من الحياة في مصر إلى التسليم بالأمر الواقع، وقبلت الحياة معه كما أجبرها عليها أبوها بعدما لفظها من معيتهِ وشبه تبرأ منها، خبت في عينيها حياة القصور وصخب الحفلات الملكية. انهزمت وقتما شعرت بتجردها من لقبها البرّاق ووضعها الرفيع في لندن، فكفّت عن التغنّي أمامه بنسبها العريق، وأن جلالة الملكة فيكتوريا وضعت على جبينها قبلة امتنان يوم ولدت، توقفت عن سبهِ وتقريعهِ، ومعايرته أمام خدم الفيلا أنه مثلهم «خادم ابن الخادمة».

اعتقد أنها باتت تراهُ محترمًا ناجحًا في عمله، ولم تعد تعتبره وضيعًا أو تشعر معه بعصمة لحمها الأرستقراطي، حينما سمحت له بخرث جسدها وامتزاج دمائهما. وإن كان حين يعاشرها معاشرة الأزواج؛ يجدها تتململ تحته في رفض صريح، ثم يسمعها تتقيأ وتبكي في الحمام وهي تغتسل بعدما ينهض من فوقها. وقتها تستغرقه بين قراءة الكتب والمسرحيات، ولا تتوقف الليدي المثقفة عن

كتابة خواطرها على أوراقها المعطرة، تسمع أسطوانات الجرامافون، تتواجد في نادي الجزيرة فترة ما بعد الظهيرة، زارت الأوبرا مرات عديدة بمرافقة بعض أفراد الجاليات الأجانب المقيمين في مصر. لما ظهرت عليها أعراض الحمل وأكد الطبيب حصوله، طار هاريس فرحا، وكله أمل في انصلاح علاقته بالليدي تمامًا بعد الإنجاب. عدّ هاريس سبعة أشهر من يوم علمه بالحمل، وضعت ماري قُرب نهايتها طفلتها الجميلة «كارمن».

***

.. عقب مولد كارمن بستة أشهر؛ أغتيل ولي عهد النمسا في «سراييفو» واندلعت الحرب العالمية الأولى تحرق أوربا كلها. في مصر؛ خلعت بريطانيا العظمى الخديو عباس حلمي الثاني؛ باعتباره مؤيِّدًا لجبهة العدو المتحاربة معها : الدولة العثمانية والألمان. ابتهج هاريس؛ لازدياد نفوذه في الوزارة بعدما وضعت الحكومة الإنجليزية «خديوية مصر» تحت الحماية البريطانية، وسُمِّي الإقليم المصري «سلطنة مصر» تحت حكم سلطانها الجديد حسين كامل؛ عم الخديو المخلوع.

بعد شهرين من فَرض الحماية البريطانية على السلطنة المصرية؛ صدرت الأوامر من لندن تُلزم جميع مديريات المستعمرة المصرية بدعم المجهود الحربي للجيش الإنجليزي. كلَّف المعتمد البريطاني بعض الضباط بالسفر إلى مناطق مختارة في الدلتا والصعيد؛ للإشراف على جمع المؤن من الغلة والقمح والدواب اللازمين للقوات في الحرب، وكذلك تجنيد الفلاحين بالقوة وإرسالهم للجبهة الحربية في فلسطين.

وفي الصعيد؛ اختارت القيادة البريطانية نجع السعداوية، ليكون مقرًا مركزيًا لتواجد قواتها فيما بين مديريتي أسيوط وجرجا؛ باعتبار النجع منطقة وسطى بين المديريتين، فضلًا عن أنه في قلب الريف لتتمكن القوة الإنجليزية - المرابضة بشكل دائم - من مراقبة العمد ومشايخ الخفر عن قُرب؛ وتضبط تلاعبهم المستمر في تهريب الرجال من التجنيد الإجباري نظير رشاوي تدخل جيوبهم، وكذلك تمنع سرقاتهم المتكررة للمؤن، والأهم من ذلك كله أن عمدة النجع «السيد سعد الله» شاب قوي وعنيف مع الفلاحين، ذاع صيته بعدما قَبَضَ على المطاريد قبل عامين، أبدى استعدادًا كاملًا - ومن تلقاء نفسه - لمساعدة بريطانيا العظمى.

عرض بناء كامب للجيش الإنجليزي، ثم شيدة في وقت قياسي على أكمل وجه، وفق المواصفات التي اشترطها الجيش الإنجليزي، ومن دون تكلفتهُ مليمًا واحدًا، بعدما جمَع نفقات البناء من أموال الضرائب المفروضة على الفلاحين، وكذلك تعهَّدَ بتزويد الكامب بكافة مستلزماته المعيشية. باعتبار هاريس موظفًا كفئًا؛ ألحقهُ المعتمد البريطاني بقوة الجيش الإنجليزي برتبة ضابط مؤقت، ثم كلفهُ بالسفر إلى نجع السعداوية قائدًا عسكريًا عامًا على المنطقة، ومنحهُ صلاحيات المعتمد البريطاني في المديريتين، لتنفيذ مهمته على أكمل وجه.

***

.. استعد هاريس للسفر إلى الكامب بمفرده، على أن يعود لأسرتهِ في القاهرة خلال الإجازات الشهرية. وقبيل رحيله بأيام، أبلغه أحد الخدم المصريين - في تردُّد - بأخبار مريبة عن ماري أن : رجلًا - يبدو مرموقًا للغاية - من الأجانب لا يعرفه، وسمعه يرطن بالفرنسية، يزورها في الفيلا بعدما يخرج هو لعمله في الوزارة، وأحيانًا ينتظرها عند أول الشارع في سيارته لتأتي وتركب معه، وترجع إلى البيت قبل عودته. جُنَّ هاريس وتقصَّى الأمر ليتفاجأ بأن هذا الرجل هو لابان، وعَلِمَ أنه طلب نقله لقنصلية مصر بناءً على طلبهِ، في وقت يتزامن مع وصولهما تقريبًا. أكدَ له بعض معارفه من موظفي القنصلية الفرنسية أنهما - ماري ولابان - يتقابلان منذ شهور في فيلا لابان الخاصة بحي الزمالك.

اندفع غاضبًا يواجه ماري بأدلة خيانتها، قابلت ثورته بوجهٍ ساخر يتعجب من غيرته المفاجئة على شرفهِ، لم تردَ على تساؤلاته بكلمة واحدة، بل اكتفت بهزِّ رأسها إيجابًا تؤكد له صحة ما بلغه، وبريق عينيها يتلألأ معترفًا بلذة فجورها مع لابان. تمددت أمامه بجذعها على طرف السرير تتحسس الفراش بكفيها في هيام وتقبله في مجون؛ كأنما تُجبر هاريس أن يستدعي بخياله مشاهد كاملة من لقاءاتها الحميمية مع لابان في مخدعها. ومِنْ نَومتها المتغنِجة لَوت شفتيها له في قرف لتذكره بدياثته ووضاعته؛ ليحني رأسه وانصرف مخزيًا.

تذكر أن تلك الرواية تمت إعدادها عن طريق مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة .

في الأيام القليلة التالية، اكتشف هاريس أنه لإحساسه بتحقيق ذاته في المستعمرة المصرية، نبت في نفسه شيئًا من النخوة لم يعرفه من قبل، ولا يليق بظروف زواجه من ماري، ولما علم بأمر لابان في مصر ثارت حميته الطارئة

تبكته، ولكن يبقى غضبه على شرفه الفهدر أوهن من قدرته على تعنيف مولاته الفاسقة، فانزوى عنها بعيدًا، وانفرد به تساؤل مؤلم يعصف بوجدانه : حقيقة نسب كارمن إله؛ المولودة بعد سبعة شهور من بعد أول يوم عاشر فيه الليدي معاشرة الأزواج. الطفلة ولدت مكتملة ومتعافية، ليست مبتسرة مثل المولودين قبل تسعة أشهر.

حسب توقيت وصول لابان إلى مصر يكون قد سبقه في معاشرة زوجته، ساورة هاجسًا بأن «كارمن» ابنة عشيق زوجته، وعلى شكوكه القوية لا يجرؤ على التصريح - أو مجرد التلميح - بتساؤلاته حول نسب الطفلة؛ فتنفضح علاقة زوجته بعشيقها الفرنسي في القاهرة مثلما ذاعت في لندن، ما سيعرقل صعود مستقبله الوظيفي، كما حدث مع أبيها وأحرج مركزه مع الملك وخصومه.

تلافيًا للفضائح محتملة الحدوث مع لابان؛ أراد التحفظ على الليدي اللعوب بعيدًا عن عشيقها باقتيادها معه إلى نجع السعداوية. طلب منها برفق - يحمل في طياته تهديدًا - الذهاب معه للكامب وإلا سيضطر إلى أخذ الطفلة معه بمفردها، بحجة أنه لا يستطيع الاستغناء عنها. وافقت على الرحيل معه وهي مرغمة؛ إدراكًا منها أنه - في مستعمرة مصر- بموضع قوة يُمكنه من تنفيذ تهديده، وتخاف على ابنتها منه؛ فهي تسمع مِنْ نظراته المسمومة وهو يتطلع إلى الطفلة صراخًا هادرًا «أعلم أنها ليست ابنتي وسأقتلها يومًا ما».

وفي ليلة السفر عسكرت القوة الإنجليزية أمام الفيلا؛ جنود مسلحين في سيارات جيب حربية. خرج من الباب هاريس في بدلة الضابط، تتبعهُ ماري تحمل كارمن، ونهرته بقسوة أمام العساكر حينما دعاها للركوب معه، واستقلت وطفلتها سيارة أخرى. تحرك ركب السيارات الطويل، وهاريس يسأل السائق عن موعد الوصول المفترض إلى تلك المنطقة البعيدة؛ المسماة «نجع السعداوية» ونطق الاسم بصعوبة، فأجابه : في ظُهر اليوم التالي.

*****

8

الكامب

في الصباح؛ أسرع السيد إلى غرفة التليفون في الدوار ليردّ على اتصال مركز الشرطة. المأمور يُبلغهُ أن : الحكمدارية أخطرته رسميًا بأن القوة الإنجليزية

ستصل إلى الكامب ظهر اليوم، والعمدة يؤكد له تمام الاستعداد لاستقبالهم. ذكّرهُ - المأمور- بإرسال الرجال المرحّلون إلى الحرب، وإعداد مؤنة الأسبوع المخصّصة للمجهود الحربي للجيش الإنجليزي، لأن قوة من المركز ستصله بعد قليل لاستلامهما وتوصيلهما إلى مخيمات الجيش الإنجليزي.

قبل الظهر؛ وصل لنجع السعداوية، أونباشي من المركز متبوعًا بخمسة عساكر استقبلهم العمدة، وقادهم إلى الشونة - حيث تخزين المؤنة - مشيرًا ناحيتها بعصاهِ في افتخار؛ مكدّسة عن آخرها بشكائر الغلة وأجولة التبن والقمح والشعير ثم أخذهم إلى الزريبة المزدحمة برءوس الماشية والحمير والبغال الغفيرة. الأونباشي يحصي الشكائر والدواب، يدوّن أعدادها الكبيرة بقلم الكوبيا في الدفتر أمام خانة نجع السعداوية، يبشرهُ برضى الحكمدار؛ كونه أكثر غمد المديرية بأسرها تحصيلًا للمؤن. اندفع أحد العساكر يشيد للأونباشي - الجديد في المركز- في زهو بقوة العمدة، مؤكدًا على هيبتهِ واختلافهِ عن سائر عمد المديرية، وأورد سيرة القبض على المطاريد. رمق الأونباشي السيد في احترام، واستفسر منه عن سبب تأخر إرسال الفلاحين للمركز. ردّ في ثقة وهو يبصم بختمهِ على الدفتر أمام خانة نجع السعداويةِ، بعدما فوّت له «إتاوة» المركز من المؤنة - لم تُثبت في الدفتر- قدرها عشر شكائر غلة وثلاثة بغال :

- راح أوديهم للمركز بنفسي بعد العصر..

العمدة يحتجز الرجال في الكامب منذ يومين على ذمة الترحيل، فضّل تأجيل إرسالهم للمركز لِما بعد وصول الضابط الإنجليزي؛ فيكون انطباعه عن مجهوداته المضنية - لصالح بريطانيا - إيجابيًا؛ حين يرى جموع الفلاحين يساقون أمامه بمنتهى الخضوع لصالح الحملة البريطانية.

انصرف الأونباشي والعساكر بعدما حملّوا المؤنة الضخمة فوق عربات خشبية تجرّها البغال. ركب السيد حنطوره إلى الكامب، منتظرًا وصول القوة الإنجليزية الوشيك. دخل ساحة الكامب الفسيحة ونزل من الحنطور محاطًا بالخفر طارفرخا لما وجد عدد رجال الترحيلة يجاوز المائة، أمامه يقرفصون على الأرض في استسلام تام. عطف وجهه ناحية رجل مصلوب على النخلة يصرخ، لا يكُف خفير عن جلد ظهره العاري بالكرباج. صاح في الخفير بحزم :

- كان عايز يهرب ؟

واصل الخفير الجلد القاسي :

- فيش كلب منيهم يستجري يعملها يا عمدة.. دِه حرامي نتن خطف هبرة لحمة من وكل العسكر الإنجليزي..

الرجل ينتحب مستغيثًا بالعمدة :

- آخر مرة النوبة دي يا عمدة.. كنت جعان يا عمدة..

تقدّم السيد نحو الرجل، وتفرّس عينيه ليقيس مساحة الذُعر في نفسه، فوجده أكبر من ألم الكرباج على ظهره، ثم جال ببصره - الثاقب للضمائر- بين وجوه باقي الرجال؛ فرآهم يرقبون جلد زميلهم وهم يرتجفون، وعلى ملامحهم اعتراف بفداحة ذنبه؛ لما تحقّق له امتلاك الرعب لأعماق قلوبهم، أشار للخفير بالتوقف عن الضرب وفك وثاقه. فإذا بالرجل ينبطح يُقبّل حذاء العمدة في احتفاء؛ لعفوه عنه وسعة رحمته. خشي العمدة على جلبابه وحذائه الجديدين أن يتلطخان بدم الرجل السائح، ما قد يفسد هيئته المنمقة لاستقبال الضابط الإنجليزي، غرز ظهره بطرف عصاه كإشارة للخفير أن يأخذه، فسارع نحوه يسحله على الأرض، ويحشره منهكًا بين رجال الترحيلة، ينظرون في هلع إلى لحم الرجل الممزع..

***

.. تهامس رجال الترحيلة بعد انصراف الخفير عن مصيرهم المجهول بعد الترحيل. بعضهم يؤكد أن مكان الحرب هو القدس ثم يتعجبون في أسى : لماذا يؤخذون لأي حرب تقع على وجه الأرض، وهم لم يمسكوا في حياتهم سوى الفئوس لفلاحة الأرض؟.. يقاتلون في بلاد غريبة ضد عدو مجهول وغالبهم لا يعود. يجمعهم رجال الباشا الكبير(محمد علي) من الحقول كالأرانب، ومن بعده يسوقوهم ولده (الوالي سعيد باشا) لحفر قناة السويس بالسخرة، وتلك المرة يسبيهم العمدة لمصلحة الإنجليز وينهب أموالهم!

يوشوشون بعضهم في حسرة أن : بعض البيوت في النجوع والقرى المجاورة تمتنع عن أداء المؤنة، فالرجال هناك يناكفون العمدة أو يرشونه للإفلات من الترحيل إلى الحرب. ينحشر في حلوقهم الكلام عن شجاعة رجال النواحي المجاورة؛ إذ يشعرون بمرارة وكأنهم مثل الحريم أمام السيد بخوفهم منه، يهربون من نظراتهم المهزومة لبعضهم البعض، كلٌ يتهم فيها الآخر بالجبن،

فيتبرأون أمام أنفسهم من عار خنوعهم، ينطقون بلسان عاجز يبرر وجاهة أسباب خضوعهم المتناهي للعمدة؛ بأنه قابس ومربع، لا يرتشي أو ممن لا يعصى له أمر، جفف منهم المؤنة المجحفة التي ابتلعت محاصيلهم وأفرغت زرائبهم، بمجرد أمر زاجر نقلهُ إليهم عن طريق خفرائه عديمي الرحمة؛ فسارعوا يجمعون لهم شكائر الغلّة، وسحبوا الدواب والماشية بأنفسهم إلى شونة العمدة.

أما الترحيلة؛ أوامر العمدة بشأنها كانت صريحة، وأكّد الخفراء لهم أنها عادلة؛ سمح العمدة أن : يختار كل بيت - بكامل حريته - رجلين من رجاله للتجنيد خلال ثلاثة أيام، والكامب هو مكان تجمُّع الرجال للترحيل. انتفض رجل منهم يصرخ في وجه خفير«النفر منينا هنا ميت بالجوع وفي الترحيلة ميت بالنار.. روح للعمدة وقله ما رايحينش يا بووي ياكش يقتلنا كلنا ويريحنا». ومِنْ ورائه تحمّس البعضُ يؤيدون موقفه؛ فرّ الخفير من صياحهم يُخطر العمدة. جاءهم الرد سريعًا على بادرة التمرد؛ عِنْدَ المساء وجدوا الرجل - المعارض لأوامر العمدة - مقتولًا في غيطه بالأعيرة النارية.

تجمهَرَ الأهالي حول الجثة، ليفر السيد أمامهم فوق فرسه الأسود، ويدهُ تُشهر بندقية بروحين صوبَ صدورهم. يرمق القتيل بتشفٍ، لم يترحم عليه - اعترافًا منه بأنه وراء قتلهِ - ونظر لهم بوجه الغضب؛ فانقلبت سحنته مرعبة كالمسخ وهو يؤكد بصرامة عقابية أن : مهلة الثلاثة أيام تقلّصت إلى يوم واحد، والعائلة المتأخرة ستلزم بثلاثة رجال لا رجلين. بات النجع في ليلةٍ عصيبةٍ : النساء والأطفال ينتحبون لترحيل ذويهم إلى التهلكة، والرجال في حيرة من أمرهم. وفي الصباح؛ تسابقوا إلى الكامب وهم يرددون «يا روح ما بعدك روح» ويُسلمون أنفسهم إلى الخفر!

* * *

.. وبينما السيد يتمم على المبنى، جاءه خفير قادمًا من المركز يُبلغه أن الضابط الإنجليزي وقواتهِ وصلوا منذ قليل إلى المركز وأن الحكمدار شخصيًا جاء من المديرية للمركز ليكون في شرف انتظارهم، وأن الضابط الإنجليزي سمح للحكمدار بالانصراف، مكتفيًا باصطحاب المأمور في إحدى سيارات القوة، وأن الجميع على وشك الوصول إلى الكامب.

تأكد العمدة بنفسه من جودة الطعام وكفايته للجنود، ومرق إلى داخل مبنى الكامب ليتمم على المائدة المخصصة للضابط وأسرته. لما خرج أمر رجال

الترحيلة بالوقوف، فزوا من رقدتهم. شخط فيهم أن يشدوا هاماتهم استعدادًا لوصول الضابط الإنجليزي. يحاولون نُصب قاماتهم المحنية قدر استطاعتهم، خشية الإيذاء والإهانة، والخفر لا يكفون عن ركلهم ولكزهم بكعوب البنادق ليضبطوا وقفتهم في صف واحد، ثم ربطوا كل رجل بمَنْ أمامه بواسطة حبلٍ غليظ يتصل بوسطه وعنقِهِ.

بعد دقائق؛ وصلت القوة الإنجليزية، احتلت السيارات الجيب الحربية ساحة الكامب، ونزل هاريس يتفقد المكان، وأمر الجنود بالانتشار فانطلقوا يفردون الخيام وبعضهم شرع يأكل. تقدّم السيد ناحية القوة، حيّا المأمور في روتين، بينما وقف معقود اليدين على مقربة من هاريس يتطلع إليه في انبهار لا يجرؤ على النطق بكلمة أو يمد حتى يده ليصافحهُ. يتابع في رهبة العساكر الإنجليز بخُوذاتهم المعدنية اللامعة وسلاحهم المتطور ينكمش في ذاته كلما نظر إليه هاريس بعينيهِ الزرقاوين. سمع المأمور يُحادثه بمزج بين العربية والإنجليزية وفي احترام بالغ، فَهِمَ - السيد - من كلامِهِ إعراب المأمور له عن أمنياته أن تلقى تجهيزات المبنى الجديد استحسانه، بعدما تم تأثيثهُ على الطراز الأجنبي الحديث، ثم يُلوِّح بيديهِ في حماس ناحية الترحيلة، مؤكدًا أن الرجال مستعدون للترحيل. بينما هارِيس يسمع حديث المأمور في صمتٍ متأفف واستهانة واضحة به، يتركه أثناء حديثه دون استئذان، ليتجول في ساحة الكامب بخطواتٍ قصيرة متعجرفة، وهو يربت بعصاهِ «الجنرالية» القصيرة ببطء مسرحي فوق كفه المغطى بقفاز جلدي سميك.

ماري؛ داخل السيارة منهكة، تحمي وجهها بقُبعتها المخملية من هجمات الذباب، لَوّحت أشعة الشمس - على برودتها في الشتاءِ - بشرتها الناصعة إلى اللون القرمزي، مرهقة من السفر الطويل، مستاءة وقلقةَ من الأجواء الغريبة حولها. مِنْ المشهد المزدحم استرعى بصرها رجال الترحيلة، اعتقدت في الوهلة الأولى - لسواد بشرتهم وطريقة تقييدهم بالحبال - أنهم قردة. سألت أحد العساكر بفضول شديد عن صفتهم وسبب ربطهم بهذا الشكل المهين؛ لمَا عرَّفهم لها نظرت ناحيتهم في إشفاق وقرف، أبدت له تعجبها من إرسالهم إلى الحرب على هزالهم وإعيائهم الواضحين، فأجابها العسكري وهو يلوي شفتيه قرفًا ويشير ناحيتهم في اشمئزاز «إنهم يا سيدتي لا يصلحون أبدًا للقتال فهم مرضى بالديدان وجهلة ومتخلفون»، ثم استطرد يوضح لها دورهم الفعلي في الحرب ملوّحًا بذراعيه كمن يرضُ شيئًا في الفراغ «يتخذهم الجيش غالبًا دروعًا بشرية

توضع في المقدمة».

نزلت الليدي من السيارة متوجسة تحمل طفلتها، مَشَتْ - بإرشاد الجندي إلى مكان إقامتها - ناحية مبنى الكامب. ذيل فستانها الحريري يكنس تراب الأرض اللزج، تذكرت أن فستانها الغارق في غبار أحراش المستعمرة المصرية الآن، هو ذاته الذي تأنقت به في قاعة العشاء الملكية الكبرى في قصر«بكانجهام»، في ليلة الاحتفال بتتويج الملك «جورج الخامس» على عرش بريطانيا العظمى. حاشت في عينيها دمعة مقهورة؛ حزنًا أن تلبس فستانها الملكي في مثل هذا المكان النائي القذر وتقع عليه أعيُن أولئك الرعاع السود، تتقزز من أبصارهم حين تسقط فوق لحمها الوردي، بعدما حصدت نظرات إعجاب أمراء الأسرة المالكة، وأطربتها شهقات النبلاء.

ويبقى الأكثر إيلامًا لنفسها رؤية هاريس - ابن الخادمة - في زي الجيش الإنجليزي وفوق صدره شارة التاج الملكي، والكافة أمامها يُقدرونه؛ لا تتقبل أن يصادف أي إجلال ولو من أولئك الغوغاء، تفهم أنهم لا يحترمونه إلا لكونه إنجليزيًا، استكثرت عليه إنجليزيته وحقدت على بشرته البيضاء، تراهُ بعين دونية مجحفة مثل الفلاحين السود الواقف بينهم.

باقترابها من مدخل الكامب، تخشَّع الجميع في وقفتهم احترامًا لها. مع مشيتها السريعة العصبية انغرز كعب حذائها الرفيع في كومة من الحصى، فاختل توازنها وكادت تسقط. اشتعلت أعصابها التالفة، أشاحت بيدها ناحيتهم في مَقتٍ كأنما تهشُهم وبإنجليزية غاضبة صرخت فيهم :

- لا أريد رؤيتكم أيها الحشرات القذرة..

فَهِمَ المأمور معنى السباب، رجع خطوة للوراء وقلّدهُ السيد والخفر. فيما توتر هاريس وحاول التواري منها تجنبًا لإهاناتها المعتادة له والمتكررة أمام الناس، ولَم يُسعفه الموقف، لتعاجلهُ بنظرة مَقت أحسها تسلخ لحم وجهه. دخلت إلى الكامب ومن ورائها جنود يحملون حقائبها وصناديق الكتب وأوراقها، والجرامافون والأسطوانات.

* * *

.. وفي الأيام التالية؛ عادت ماري لشراستها القديمة مع هاريس بعدما كانت تُهادنهُ أيام إقامتها في القاهرة؛ لتصرف نظره عن لقاءاتها السرية مع لابان، ولم

تسمح لهاريس بمعاشرتها تسليفا منها بالأمر الواقع - كما اعتقد هو؛ إنما حذرا منها لو حدث خلل - سواء منه أو لابان - لا ينكره وينسبهُ لنفسهِ من دون ضجيج قد يصل إلى أبيها في لندن فيزداد سخطه عليها. لما عرف بوجود لابان انتفى لديها سبب التظاهر بالتعايش السلمي معه، وكادت تُجن لما أبعدها عن عشيقها في القاهرة؛ فصار فريسة لغضبها العارم، تمزقه كلما رأته بأنياب الحقد والاحتقار ولا يملك غير الفرار من وجهها طيلة اليوم خارج مبنى الإقامة ولا يعود إلا للنوم وهو يتسحب، خوفًا من أن يصادفها فتسبه!

وذات مساء وجد ماري في غفوة على مقعد في الصالة، وبجانبها بعض أوراقها التي لم يعرف أبدًا ماذا تكتب فيها. مشي ناحيتها في حذر مدفوعًا بالفضول أن يعرف ماذا تكتب، التقط الأوراق ودسها في سترتهِ وانطلق خارج الكامب ليقرأها، تفاجأ بها مناجاة لزوجها المغذبة بحب لابان؛ أشواقها إليه وأوجاع فراقه، اعترافات ماجنة وشديدة الصراحة. ما قرأه ليس بجديد على علمه، ولكن الكلمات جاء وقعها في نفسه أعنف وأقسى، عذوبة الحروف جسدت مأساته معها وذبحته حلاوتها بسكينٍ بارد، أعاد القراءة دامعًا وقلبه معصورًا بالألم، جاشت نفسه غضبًا ولم يقدر على تمزيق الأوراق؛ لأنها مكتوبة بخط يدها وتفوح برحيق عطرها الأثير يتنشقه مذبوحًا بالأسى والاشتياق إليها؛ ليكتشف أنه وقع في حبها أثناء الفترة التي تظاهرت فيها باللين معه وتقبلها له، ولا يستطع إجبار نفسه على كراهيتها أو تجاهل مشاعره ناحيتها، لم يجد طريقة ينسى بها آلامه ويرمم كرامته الجريحة سوى إقحام نفسه في العمل بشكل كبير ويسّر له السيد بقوته الكثير من مهامه في النجع.

***

.. يبدأ السيد يومهِ في الصباح الباكر؛ بالتشديد على الخفر أن يتابعوا جمع المؤنة، يمر بنفسه على الخفر الذين يحرسون مخارج النجع؛ لمنع تسحب الرجال هاربين عسى أن يصيبهم الدور في ترحيل قادم، ثم يركب حنطوره إلى الكامب، يقعد بين الجنود الإنجليز أمام المبنى، انتظارًا لخروج الضابط هاريس من مقر إقامته قبل الظهر. يقف أمامه مبهور الأنفاس معقود الكفين، يتلقى منه تعلمات اليوم ويسارع في تنفيذها فوزًا وبدقة ثم يخطره بما تم اتخاذه خطوة بخطوة، طاعته وقدرته الفائقة على تنفيذ كافة الأوامر أكسبته ثقة هاريس سريعًا؛ فتعاظم نفوذ السيد عشرات المرّات بل وأصبح بفضل قربه من هاريس في موضع قوة أكبر حتى من المأمور أو الحكمدار ذاته؛ إذ فوّضه - هاريس - في

تلقي كشوف إحصاء المؤن وترحيلات الرجال في المديريتين (جرجا وأسيوط)، يُراجعها ليعرضها على هاريس، ما جعل كبار الضباط بالمديريتين يتقربون إلى السيد اتقاءً لوشاياته بهم.

وفي ذات الوقت يتضاءل العمدة مرهوب الجانب أمام هاريس ولي نعمته، لا يتحرج من إظهار مذلته أمام الخفراء والأهالي بل يعتبرها واجبًا ويتباهى بها. على ثقة هاريس في السيد يعامله بمنتهى العجرفة، فيما يُبدع السيد بدوره في صياغة أشكال متعددة لخضوعه: لا يحادثه إلَّا وعينه في الأرض ويداه تلزمان جنبه، ملامحه ترسم مظاهر الاستسلام التام والعرفان، المبادرة بهز الرأس بالإيجاب حركة أرادها أن تبدو له لا شعورية، لمَّا شافه ممسكًا بالعصا الجنرالية، لم يظهر أمامه بعصاه مرة أخرى خشية أن يعتقد تطلعه لأن يصير بدًا له، وفي ذات الوقت استحكمت العداوة بين السيد وبين الشيخ أبو الجود وقد استخدم علمه بالدين سلاحًا في مواجهة غريمه..

***

.. عقب صلاة ظهر يوم جمعة، وقف الشيخ أبو الجود في باحة الجامع، وقف بين الناس يجهر بصوته الفخيم، وأطلق فتوى جريئة أخرج بها السيد من دين الإسلام، أكد أن الوضع القائم في النجع حاليًا كُفر لا يُرضي الله ورسوله؛ فالعمدة الباغي يشُد أزر بريطانيا النصرانية في الحرب الصليبية الدائرة الآن، ضد خليفة المسلمين والدولة العثمانية المؤمنة. هتف يدعي أن الضابط الإنجليزي سيحوِّل الجامع الذين يصلون فيه إلى كنيسة كبيرة، فثار لغط وغضب شديد بين الناس!

انزعج السيد من فتوى الشيخ، أدرك خطورتها عليه لما سيظنه الناس في صحيح إسلامه. تلافيًا لعواقب تكفيره المخيفة التي قد تنتهي بثورة الناس عليه وتهجيره من النجع، راح ينفي أمام الأهالي كل ما قاله الشيخ، وبالذات فيما تعلَّق بتحويل الجامع إلى كنيسة، وأكَّد أن الجامع ستتسع مساحته؛ فقام بضم قيراطين أرض ملاصقين للجامع مملوكين لأسرة من نصارى النجع، لما توسَّل له رب الأسرة المستضعفة أن يترك الأرض مصدر رزق الأسرة الوحيد، رفض وغصبها منه بالقوة وبدون مقابل ثم سورها ليُلحقها بساحة الصلاة - ما لقي استحسانًا خفيًا بين الناس - ثم جدَّد واجهة المسجد، ورمَّم أجزاءً قديمة منه على نفقته الخاصة، زوَّده بحصير جديد وكلوبات غاز كبيرة، ثم دقَّ طلمبة جديدة للوضوء، وبدأ يُصلي - على غير المعتاد - مع الأهالي في الجامع، يمسك

أمامهم بمسبحة طويلة، ويتظاهر بصيام أيام الاثنين والخميس. لا يزال الشيخ على موقفه، يوالي اتهام السيد بالفسق، يصفه بالزنديق يتظاهر بالإيمان.

ضاق السيد بالشيخ، وقرر اغتياله - كما اعتاد - بعيار ناري، ولما أخبر هاريس بنواياه نهرهُ بعنف واتهمه بالغباء والتهوُّر أحنى رأسه أمام وابل الشتائم التي تلقاها من هاريس، ولما رماه في احتقار بعصاه الجنرالية، انحنى يلتقطها مخزيًا ويناولها له في خشوع. نبّه عليه ألا يمس الشيخ بأذى بل وكلّفهُ بالمحافظة على حياته؛ فتلك هي تعليمات لندن : لا تنكيل برجال الدين؛ كي لا يثير مشاعر الناس بالذات في الأرياف.

اعتبر السيد أوامر هاريس الصارمة بمثابة حصانة للشيخ، تساعده على تنفيذ طموحاته الواضحة في الزعامة. على سرية التعليمات سيدركها الشيخ الداهية، ويستغلها لصالحه بأفعالٍ جريئة تجعل منه بطلًا، تستميل الناس وتدفعهم إلى التمرد عليه وقتما يعتقدون أن نفوذه يفوق سلطة العمدة، بل وربما توصل لاتفاق سري مع الإنجليز.

تعامل السيد مع ورطتهِ بذكاء؛ التزم بأوامر هاريس، فلَم يمسَ الشيخ في شخصه، ولكنه أرعب الأهالي من مخالطته أو الاتصال به؛ نصبَ الفلكة على مقربةٍ من بيت الشيخ، علّق عليها كل مَنْ يقترب من دارهِ ولو بغير قصد، أطلق خفراءه يسوقون إلى الدوار كل من يتكلم معه أو حتى يحكي عنه، ليغطسوه في الباكبورت حتى رأسه، ويتركوه داخله واقفًا على ساقيه بالساعات ويبولون على وجهه، ولا طعام له غير البرسيم والتبن، وفوق ذلك يؤدي المؤنة مضاعفة؛ انفض الناس عن الشيخ إيثارًا للسلامة.

رغم كل ما بذله السيد من مظاهر يؤكد بها صدق إيمانه وإسلامه لم يُقنع الأهالي، وقرّ في نفوسهم تصديقًا لكلام الشيخ بأن العمدة كافر؛ لقربه الدائم من هاريس وتنفيذه لكل تعلماته وقهرهم وسرقة قوتهم، ثبت اليقين لديهم بمعاقبته لكل من يقترب من الشيخ. عصر يوم جمعة جاءه شيخ الخفر حانقًا يبلغه في انزعاج بأنه حينما دعا إمام الجامع - للعمدة - فوق المنبر في خطبة الجمعة بالسداد وطول العمر لاحظ إحجامًا في ترديد الدعاء معه، اقترن بتذمر وضيق فوق الوجوه؛ فختم الخطبة بالآية -﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم﴾- عساهم يتعقلون وأقام الصلاة.

وفي مساء ذات اليوم جاءه أيضًا خفير يبلغه في حرج أنه سمع رجلًا يقول

لآخر:

- العمدة كافر.. عيضرب المسلمين وياخد حوايجنا للإنجليز الكفرة.. ومش رايد حتى نسمع الشيخ أبو الجود بتاع ربنا!

أضاف الخفير في تعجب بأن الرجل لما سمعه، لم يخف أن يشي به عند العمدة بقولته، بل عاد وكرّرها أمامه بتحدٍ وصوت أعلى. أدرك السيد أن عاصفة التهمة النكراء - إهدار الدين - التي ألصقها به الشيخ وشيكة الهبوب، وصمه بها الشيخ اللعين وأوقعه في دوامتها اللانهائية بحنكته القديمة. الانفجار وشيك والغضب يغلي في الصدور. ليس نفوذه ووجوده المهدّدين فحسب بل حياته أيضًا، يدرك أن المساس بالدين لن يكبحه التخويف ولو ساندته قوة الجيش البريطاني كلها. بعد تفكير قصير نظر إلى الخفير يسأله :

- مولد سيدك الطشطوشي قرب يا واد ؟

تمتم الخفير في خشوع متبركًا باسم الشيخ، ثم ردّ محتفيًا :

- مدد يا سيدنا.. مولانا يهل علينا بالبركة كلها الجمعة الجاية..

- من الجمعة للجمعة قريبة.. وفي الفولد يحلها ألف حلّال!

*****

9

مقام سيدنا الطشطوشى

في آخر النهار أقبلت سيارة سوداء على كمين الجيش الإنجليزي القائم فيما بين حدود مديريتي أسيوط وجرجا، أوقفها الجنود للتفتيش ثم تقدّم ناحيتها ضابط إنجليزي شاب يتفحص الركاب بداخلها؛ السائق بدا له أنه مصري، والثلاثة الآخرون ملامحهم وهيئتهم أوربية؛ سأل السائق عن : أوراقه ووجهته وأشخاص من معه. ارتبك في الرد، والتزم الباقون الصمت وهم يتبادلون نظرات قلقة، ما استدعى ريبة الضابط، شك أنهم من أعداء الحرب؛ ألمانًا متسحبين للإضرار بالجيش الإنجليزي؛ التفت للجنود وأشار أن يتعاملوا معهم بحزم، فشرعوا يقتحمون السيارة لينزلوهم منها، سارع الرجل القاعد إلى جانب السائق يكلّم الضابط - بإنجليزية تحمل لكنة فرنسية واضحة - وهو يسلمه بطاقة هويته من

شباك السيارة :

- لا داعي للقلق.. أنا «لابان بوانكاريه».. دبلوماسي في القنصلية الفرنسية.. والسادة المرافقون بعض من موظفي القنصلية..

تغيرت ملامح الضابط إلى الهدوء نسبيًا، ولوّح للجنود بالتوقف عن مداهمة السيارة. أكمل لابان له باسمًا :

- متجهون إلى الجنوب.. في رحلة استجمام شتوية..

تأكد الضابط من صحة بطاقة الهوية وردّها إليه. لم تُقنعه إجابة لابان «رحلة استجمام شتوية» في ذلك التوقيت العصيب على دولته، لكنه تجنّب إزعاج حليف الحرب بمزيدٍ من الأسئلة، وبالذات بعدما استنتج من الاسم ثمة صلة قرابة ما بينه وبين «ريمون بوانكاريه» رئيس الجمهورية الفرنسية. حيّاه في لَطف بلغتهِ الفرنسية - كما يحب الفرنسيون - وتمنّى للجميع رحلة سعيدة، أشار بيده فانفتحت الحواجز ومرّت بينها السيارة.

بعد بضعة أمتار من عبور الكمين انطلق من المقعد الخلفي للسيارة صوت حادّ مفعم بالاستنكار:

- مسيو لابان.. ما كان يتعين أبدًا الإفصاح عن هويتك أو شخصك.. وسيبقى لنا كلام غير لطيف مع مسيو«جوفيه» بعد انتهاء هذه المأمورية السخيفة التي أجبرنا عليها..

أدرك لابان فداحة خطأه شعر بنظراته الحانقة تخترق ظهره ولَم يجرؤ على الالتفات إلى المتكلم، ردّ مهوّنًا :

- لم نتوقع وجود كمين هنا.. وكما رأيت كان يجب إنقاذ الموقف.. وأعتقد أن الأمر مر بسلامٍ ويُسر..

اندفع الرجل الآخر في الحديث كالقذيفة يرّد عليه بخشونة :

- أي بساطة التي تتحدث بها وعنها مسيو لابان.. القيادة الإنجليزية في لندن لابد وأنها غلِمت الآن بمرورنا..

احتقن وجه لابان غيظًا لإهاناتهم شبه الصريحة له وتلويحهم بنزقهِ، ولا يملك غير السكوت؛ فهو في موقف لا يُحسَد عليه أودعه فيه خبه المجنون لماري؛ تغيّرت طباعه من شاب مرموق رزين ومترفع، إلى آخر لا يعرفه، صار لحوخا

كئيبًا وفاقدًا لاتزانه النفسي.

قبل شهور؛ لاقى الرئيس رغبة ابن أخيه «لابان» بنقله رسميًا إلى قنصلية مصر ببالغ الدهشة، متسائلًا : كيف لشاب مُترف مثله أن يترك وظيفة دبلوماسي في ديوان القصر الجمهوري، ليطلب العمل في مستعمرة إنجليزية بعيدة ومتأخرة مثل مصر؟! علّق الموافقة على طلبه، وتقصّى الأمر عَلِمَ - من المخابرات - أن ابن «أخيه» عاد إلى علاقته المحرجة مع «ماري أودونيزي»، تواعدا في لندن سرًا قبلما تتزوجَ وتسافر إلى مصر. فَهم الرئيس أن لابان مسّه الجنون، ولن يتوانى عنْ تعقبها لآخر الدنيا. استدعاه إلى مكتبه وواجهه بمقابلة ماري؛ أنكر في البداية وتحت ضغط بسيط اعترف، ثم أخذ يرجوه الموافقة على نقله إلى مصر ثار الرئيس في وجهه رافضًا طلبه.

في الأسابيع التالية؛ لم يكُف لابان عن رجائه متحملًا قسوة التوبيخ. ذات مساء جاوز فراق ماري احتماله، اقتحم على الرئيس مكتبه مخمورًا يترنح، هدّد بالاستقالة من الحكومة الفرنسية، والسفر بمفردهِ إلى القاهرة لماري وقتل زوجها الصعلوك، ثم الهرب معها ولو إلى مجاهل إفريقيا. أشفق عليه الرئيس، وافق على نقله مضطرًا لسوء حالته النفسية وقبلها الفضائح الواردة، وبالذات بعد ما بلغته أنباء عن عثور خادمة بيته على حقن المورفين المخدرة في غرفته. سافر لابان إلى القاهرة، وكلّف الرئيس القنصل في مصر بمراقبة تصرفاته، ووضع العاشق الأهوج تحت الملاحظة السرية الدقيقة؛ حمايةً له من تصرفاته الطائشة ورعونته المحتملة.

وفي القاهرة توصّل لابان إلى ماري بسرعة، وعاشا معًا شهورًا هنيئة غير مهددة رسخت الحب في قلبيهما، حتى بتر هاريس شريان السعادة؛ اقتاد ماري إلى نجع السعداوية واعتقلها في الكامب. انقطعت أخبارها عن لابان إلى أن تمكنت من رشوة أحد الجنود الإنجليز في الكامب ليحمل خطاباتها إلى لابان في القاهرة وكذلك يعود منه بخطاب لها، متحجّجة لهاريس أنها ترسلهُ لشراء أسطوانات الجرامافون. لم تُشبع الرسائل شغف لابان، ولمّا فقد الأمل في عودتها إلى القاهرة قريبًا، توسّل إلى «جوفيه» صديقه القديم أن يُرتّب له لقاءً مع ماري، بصفتهِ الملحق الأمني بالقنصلية وضابط المخابرات المحنّك. رفَض «جوفيه» رجاء لابان واعتبره جنونًا بالذات بعد نشوب الحرب، ولكنه وافق في النهاية، تحت ضغط صداقته، وحزنه الكبير على رفيقه الدونجوان الذي خسر ربع وزنه، وحول عينيه تحلّقت الهالات السوداء.

جهّز «جوفيه» مأمورية سرية على مسئوليته وبدون علم القنصل العام، أعدها بناءً على خطة مدروسة : أن يقابل لابان ماري في الكامب خلال توقيت تأكد له فيه غياب هاريس عن النجع لمتابعة أعمال انتشار الجيش الإنجليزي في شمال مديرية أسيوط، وأرسل معه ضابطين من المخابرات الفرنسية يعملان في السفارة ليرافقاه. تم تنفيذ الخطة بدقة ولم يخالفها سوى الكمين الإنجليزي المباغت الذي غادروه لتوهم. داخل السيارة؛ انتشر الصمت المشحون بزفرات الضيق والتوتر ولا صوت غير هدير محرك السيارة وهي تتسمت طريقها المقفر بين أحراش الصعيد، تقصد في إصرار نجع السعداوية.

***

.. نزل الظلام التام على السيارة، أخرج لابان من معطفه خطاب ماري الأخير سبب تأجج مشاعره وتحريضه على السعي إليها. فاضت له بقلمها المؤثر فوق ورقة معطرة، تحكي عن آمالها وآلامها، وعلى ضوء القمر المكتمل أعاد قراءته مجددًا منذ وصله منها قبل أيام.

«ذرّة قلبي لابان؛ كم أحتاجك وأنا أكتب لك رسالتي هنا في عزلتي الكئيبة، لا يفارقني طيفك لحظة واحدة. أبقى في انتظار مِنّة القدر عليّ برؤياك، فأعيش معك ساعة واحدة كأنها العمر كله. الذكريات الأثيرة وحدها من تبقيني على قيد الحياة، لا أنسى آخر لقاء لنا قبل رحيلي إلى هنا، ارتج معك كياني بنشوةٍ لا مثيل لها، رجعت للبيت ورحيق قبلاتك يسكر روحي وعطرك الساحر لا يزال مطبوعًا فوق جسدي، ولكن القدر يأبى أن يكون رحيمًا ويترك أثرك الطاغي داخلي وعلى لحمي بطزاجته ونقائه؛ ليلتها جاء ابن الخادمة مخمورًا بعد مجالسة أولئك المصريين الأقذار ثم جثم عليّ ببهيمية ولسانهِ المقرف يلعقني مثل البرص، أغمضت عيني أتخيلك أنت فأفيق على أنفاسه الزفرة، وأرى وجهه الكريه ينتشي انتشاء الصعلوك بجسد سيدته، أنتفض أنا العاجزة تحته مذبوحة بصمتي؛ يغتصبني برضاي ويستغل تسليمي الخانع. أزلت أوساخه مِنْ داخلي وفوق جلدي، أبكي قهرًا وكلي احتقار لنفسي؛ وفي جوف الليل رحتُ إلى كارمن أحتمي بها، احتضنتها وشعرت فيها بجمال روحك وسحر عينيك؛ لعلها ابنتك، فيجب أن لا تكون ابنة ذلك الوضيع، فقد عاشرني الوغد في نفس أيام لقائي بك، وكأنما يتعمد إلقائي في حيرتي إلى الأبد.

ولو كانت ابنته؛ يجب أن تحبك أنت وتكرهه هو فقلبي الذي أمدها بالحياة لم يعشق سواك. أكلمها في مهدها كل يوم أخبرها بأنني: الزانية الفاسقة في نظرهم

جميعًا، والعاشقة المرهفة في عرف الحياة والإنسان، أنظر لها الآن وأنا أكتب حروفي المبللة بعطري ودموعي السخية، نائمة أمامي في فراشها مثل الملاك، أشفق عليها لأنها تعسة؛ ولدت في بلد متخلف بائس، تنشقت فيه هواءً ملوثًا وشربت ماءً محملًا باليرقات، تعيش معي المسكينة بين أولئك العبيد السود في تلك الأحراش المخيفة، نسبها يرتد في السجلات الرسمية إلى ابن الخادمة بدلًا من بوانكاريه وأودونيزي العظيمين.

يا ألله.. فتحت عينيها لتوها الآن وتثاءبت وابتسمت لي، أرى في مقلتها الجميلة مستقبلها، أوشوش لها بنبوءة عاشقة مثلي، فالعاشقات مثل العرافات يدركن خبيئات المستقبل ويقدمن عليه رغم قتامته : كارمن يا جميلتي الشقراء.. لو؛ كنتي ابنة لابان فالحب سيكون قدرك الجميل وأيضًا سر عذابك الأبدي، فلن تعيشي حياةً باهتة باردة في قصر من قصور لندن الفخمة.. ولن تتزوجي من رجل فخم أجوف الروح مثل جدك اللورد العظيم، وكذلك لن تصيري مثل جدتك الكونتيسة خادمة للكنيسة والعذراء.

أيها القدر ترخم بهذه الضعيفة؛ ابنة الحب وضحية العشق والإخلاص.. كفاها من العار ما سيلاحقها أبد عمرها من قسوة مجتمع مملكتنا العظمى، في كل وقت في حياتي وبعد موتي، ستظل ابنة ماري الفاجرة وهاريس الديوث. سأفهمها أني منحت عقلي وإحساسي قبل جسدي، تمردت روحي على عقدٍ لا إنساني زائف أبرمه كاهن الكنيسة لأكون المخلصة لقلبي وحده، فأنا مَنْ مارست الرذيلة تحت تمثال العذراء قابضة على الصليب المقدس. أتلذذ بفجوري وفسقي مع من أحببت، أتطلع بجسارة لنظرات المسيح المعاتبة الزاجرة وغضب مريم البتول.

أما الآن ماري أودونيزي التي راهن أبوها أن تكون ملكة بريطانيا يومًا ما، خسرت كل شيء وفازت بقلبك فكان لها كُل الدنيا، تنازلت عن متع الحياة وادعاءات الشرف الزائف لأجل حبك أنت، تحملت الكثير بيقين وإخلاص وصبر.

أكتب لك ولا أصدق أنني سألقاك قريبًا كما وعدتني. سأفرش الورود حول مخدعي ويتعطر جسدي المشتاق إليك أن تمنحه سر الحياة من جديد.

المخلصة العاشقة.. ماري..

جنوب المستعمرة المصرية - 11 ديسمبر .« 1915

قرأ ولما انتهى، أحدق في الفراغ المظلم وأنامله تقبض على الرسالة، وفي فورة

مشاعره انساب لأذنيه ترانيم صوتها رقيقًا كسيزا، تتعبد بضراعة في محراب عشقه، تكلّمه ثم تتمثل أمام عينيه ملاكًا معذبًا، تشكو له قلة حيلتها بحكمتها الزاهدة في الحياة.

انتزعه من شروده صوت السائق وهو يُشير بسبابته للأمام :

- النجع قدامنا أهو..

أبطأ سرعة السيارة حتى توقفت أمام القنطرة المؤدية إلى النجع، بدا لهم متوهجًا بأنوار قناديل الفاز الكبيرة المعلقة احتفالًا بمولد الطشطوشي. نزلوا جميعًا من السيارة ووقفوا بجانبها، ترامت إليهم أصداء الزحام وأهازيج التكبيرات، ومن العتمة أقبل عليهم أحد العساكر الإنجليز حاملًا سلاحه.

***

دخلَ جمل المولد العفي دوّار العمدة، وفوق سنامهِ استقر الهودج الخشبي الكبير ملفوفًا في ثوبٍ من القماش الأخضر الزاهي. نخ - الجمل - أمام الباب استعدادًا لاستقبال «الشيخ الطشطوشي» الذي حلّ بالأمس ضيفًا على العمدة، وفي دواره قضى الليلة استعدادًا لإقامة المولد، ولدى معرفة الأهالي بالنبأ الميمون، أمضوا الليل بطوله يطوفون حول دوار العمدة - حيث الشيخ - يستجدون البركة، يقينهم أن الشيخ الطشطوشي : وَلِيّ من أولياءِ الله الصالحين، مكشوف عنه الحجاب، لا يُعرف له نسب أو مكان أوتاريخ ميلاد، أخذ العهد المبروك من سيدنا جبريل علمه السلام، الشيخ يستأذن الملاك جبريل في كل كبيرة وصغيرة؛ لا ينطق بكلمة أو يذهب إلى أي مكان إلا بعدما يأخذ الموافقة من كبير ملائكة الرحمن!

تواترت الأحاديث المؤكدة عن كراماتهِ ومعجزاته؛ يُشفي الناس من الأمراض المستعصية، مؤيّدًا بقدراتٍ خارقةٍ : يُحرّك الرياح وشوهد يمشي فوق الماء، يروّض الوحوش؛ ففي عزلته الروحانية بالجبل تركه مريدوه ليشتروا له طعامًا، فحاصره رهط من الذئاب، لما عادوا تفاجئوا بها راكعة أمامه تصلي وتتعبّد وتتبعه أينما يذهب، وأنّ لصًا حاول سرقته، فسخطه بلمسة من إصبعه إلى حمار أعرج بثلاثة أرجل، ولا زال الحمار- اللص - يأتي إلى الشيخ كل عام ليستسمحه أن يرده إلى هيئته البشرية مرة أخرى.

انتهت صلاة العشاء وخرج الناس من جوامع النجع أفواجًا، يتكاثفون حول

دوار العمدة تلهفًا على خروج الشيخ. انفتح باب الدوار شهقوا وانطلقوا يُكبّرون، لما أشرق عليهم الطشطوشي متربعًا فوق محفّة خشبية يرفعها الخَفر فوق أكتافهم في فرحة غامرة، اكتحلت العيون برؤيته في هيئته المتدروشة؛ جلبابه الواسع القصير وقدميه الحافيتين، شعر رأسه الطويل مضفورًا في جدائل طويلة، تنسلّ من تحت عمامته الخضراء الضخمة، وفي مقدمتها تهتزّ ريشة طويلة ملوّنة أخذت أنظارهم، قيل إنها مأخوذة من جناح أحد ملائكة السماء. زفّ الخَفر المحفّة بالشيخ ليسكنه المريدون داخل الهودج؛ فوحدهم - المريدون - المسموح لهم الاقتراب من الشيخ بعدما منحهم العهد الحافظ من أثر بركاته الساطعة، فلا ينجذبون من شدتها النورانية إلى دوامات الخَبل بلا رجعة.

نهضَ الجمل - بهودج الشيخ - يحدوه المريدون، ولا يكفون عن التكبير وقرع الدفوف، وفي طرقات النجع الضيقة سبقوه يرفعون الأعلام الملوّنة. الجمل يئق بخطواته الثقيلة ومن حوله الجموع الغفيرة ينادون على الشيخ فيطل عليهم، بالكاد يميّزون ملامح وجهه الأسمر النحيل المطوق بلحية كثيفة نصف شيباء. يتطلعون إليه في خوف وترقّب، يقفون أمام اختبار صعب على نفوسهم؛ الشيخ بإمكانه رؤية موقع كل واحد منهم من الجنة أو النار فإذا ما التفت إلى أحدهم بوجه مبسوط يستبشر بالجنة، وأما لو طالعه غاضبًا فهو في النار وإذا نظر له واجفًا بغير انطباع فهو- على الأعراف؛ لا من أهل الجنة ولا من أهل النار. تُشيّع الموكب زغاريد النساء مدوية من وراء أبواب البيوت، يهرول الرجال حاملين نفحة للشيخ - تغفر ذنوبهم - من لحم وطيور وسمن وعسل وشعير ظلت الأسر الفقيرة تدبرها طيلة شهر فات - وبالذات بعد المؤنة الملزمون بتقديمها للعمدة أسبوعيًا - باقتطاعها من قوتهم، وتكالبوا يضعونها على ظهر عربة يجرها حماران يسوقها مريد، وآخر فوقها يرتب ويرّص النفحات داخل أجولة وأقفاص.

عاد الشيخ بعد انتهاء الطواف إلى دوار العمدة حيث حلقة الذكر أنزلة المريدون حملًا من داخل الهودج. تدافع الأهالي لداخل الساحة، يتسابقون نحو الصفوف الأمامية للقعود قُربًا من دكة الشيخ. احتفى المنشد بوصول الطشطوشي، ساح في نوبة ابتهال يتغنى بنثر منمق السجع، ثم حيّاهُ «مدد مدد يا سيدي الطشطوشي.. سلام علىك يا ولي يا مبروك.. مدد مدد». انبرى بعدها يُصلي ويسلم على آل البيت أجمعين. فيما وقف الناس يتطوحون على دقات الدفوف المتناغمة مع ابتهالات المنشد الصادح بصوتٍ شجي «يا مريدي لا تخف أبدًا.. وأنعم بذكري جهرًا وسرًا.. فإذا دعاني مريدي وهو في لجج البحر أجبته وأغثته

بقربي..».

وفي ذروة الاندماج والنشوة الروحانية؛ تململ الطشطوشي في جلسته، غام وجهه بسحابة الغضب ولوّح بذراعه، فتوقف المنشد واجمًا واكتسح الصمت والترقب المكان. ارتعدت فرائص الجميع لمّا ارتعش بدن الطشطوشي وشخص بعينيه للسماء، تمتم بعباراتٍ غير مفهومة، ورفع سبابته إلى السماء مرددًا بصوت جهوري فيه حشرجة تفوح منها نبرة غضب « يا أحباب سيدنا النبي.. جاني هاتف السماء جايب لي رؤية في بلدكم الطاهر. شفت العمدة يجمع المال والرجال ويضعهم في حضرة سيدنا النبي وابتسم..».

الشيخ لا يتحدث بلسانه إلا لأمر جَلل وبوَحيٍ وأمر من خليله جبريل عليه السلام. صمت مليًا ثم اهتز بجذعِهِ وواصل كلامه وهو يرفع سبابته للسماء، وتشظّى من غضب نبرته وعيدًا أرجف السامعين:

- وقال لي المصطفى إنه غضبان على الخليفة في بلاد الترك.. عمدتكم في معية سيدنا النبي مين يعارضه منه له.. منه له.. منه له..!

أنهى كلامه ثم اعتكف في صمته الأثير ملامحه ترسم للناظرين المشدوهين هدوء الرسل، بعد إبلاغ رسالة مؤتمن عليها من السماء. فاضت ألسنة الناس بالصلاة والتسليم على النبي، يتطلّعون إلى العمدة الواقف جانب الشيخ خاشعًا مُسبَل العينين، تداخل كلام الطشطوشي عنه وما رواه عن النبي بشأنه، يجترون سُخطهم عليه وكافةُ خطاياه: نهبه لأموالهم وترحيلهم قسرًا إلى الحرب، استقدامه الإنجليز إلى النجع ومؤازرته لهم. ما ينطق به الشيخ محققًا كمعجزات الأنبياء، يقينًا لا يُراجع، فانقلبت الصدمة في عقولهم ونفوسهم إيمانًا وتصديقًا، يُشيطن لهم الخليفة العثماني آخذًا في طريقه حليفه الشيخ أبو الجود؛ انصلح موقف الإنجليز لديهم، فعساهم يريدون بالأمة الإسلامية خيرًا، انتهت بهم الحيرة إلى خجل من أنفسهم وتعاطف مع العمدة، سلّموا بذنبهم وغفلتهم بعد رؤية الوليّ الصالح، وأيّد موقف العمدة لديهم نفورهم الدائم من خصمه الشيخ أبو الجود، إذ جهَرَ مِرارًا بتكفير سيدهم الطشطوشي المبروك، فقاطع بعضهم مجلسه للأبد، وآخرون اتهموه في صحة دينه لأنه ينكر القرآن بوجود أولياء لله، وانحرافه عن السُّنَّة بتحريمه الموالد وتبجيل الأولياء، ثمّنوا موقف العمدة وصدّقوا إيمانه باحتفائه بالشيخ في بيته، فقد ذبح له عجلًا وجهز المولد وأقام حلقة الذكر ثم سمح لهم أن يرتادوها ليتباركوا به.

وفي تلك اللحظات؛ عاد الطشطوشي إلى سكينته إيذانًا أن يواصل المنشد مديحه، فصدح صوته الرخيم معانقًا خبطات الدفوف العالية، وتاه الناس في تجليات سماوية، وراحوا ينقون برءوسهم في نشوةٍ وحبور!

* * *

استقدم المولد الكبير الخوّاة وجوقات الطرب من البندر توافدوا على النجع جماعات منذ الصباح الباكر ينصبون خيامهم في أرض بائرة خلف الدوّار خصّصها لهم العمدة أن تكون مطرحًا للمولد، الأهالي يلتفون حول باعة الحمص والحلوى ويلعبون الورق ويسمعون الطرب، فيما استأثرت حلقات رقص الغازية «حكمت» بالنصيب الأوفر من الزحام. أغرت بهجة المولد العساكر الإنجليز بزيارته، انتهزوا فرصة غياب هاريس وتناوبوا التردد عليه، تركوا الكامب شبه خاوٍ بلا حراسة، وتحلّقوا حول «حكمت» الغازية؛ حديث المولد - وكل مولد - بحلاوتها وجمالها، مفتونين برقصها الشرقي وجسدها اللدن، أكلتها عيونهم الزرقاء حينما تمدّدت على الأرض في غنج، تثني ساق تحت الأخرى، وبجذعها الليّن اعتدلت من رقدتها في بطء مثير تطرقع الصاجات بمهارة، تهزّ صدرها الكبير على إيقاع الطبلة والمزمار.

بين الزحام الكثيف؛ تسحّب لابان ومعه الضابطان، جميعهم يلبس جلاليب بلدية ويقودهم العسكري - العميل - بحذر ناحية الكامب. كانت خطة «جوفيه» تعتمد على اختيار يوم المولد لتنفيذ المأمورية كي يذوبوا وسط الزحام، على أن يتقابلوا قبل دخولهم النجع مع العسكري الإنجليزي الذي رشتهُ ماري، وجنّدتهُ فيما بعد المخابرات الفرنسية. جهّز العسكري لهم الملابس البلدية كي يذوبوا بين الأهالي ولا يستغربهم أحد، يغطون وجوههم - قدر المستطاع وبما لا يستدعي الريبة - لإخفاء ملامحهم الأوربية.

لما اقتربوا من المبنى رفع لابان عينيه صوب الشرفة، رأى ماري واقفة في قلق، مدّ خطاه في لهفة علمها، فأدركته بإحساسها ومن وراء لثام ميّزت وجهه، ورأت عينيه تلمع في بهجة، ومن مكانه سمعَ دقّات قلبها تنطق باسمه. شدد عليه الضابطان أن لا يزيد بقاؤه عندها عن ساعة واحدة، ينزل بعدها ليعودوا إلى القاهرة كما جاءوا.

أطفأ العسكري الإنجليزي قنديل الغاز على بوابة جانبية للكامب مكلف بحراستها، وأشار إلى لابان أن يسرع متسترًا بالظلام، فمرق إلى داخل الكامب،

من فُرجة الباب الموارب، جذبته ماري إلى الداخل أغلقت وراءه الباب بسرعة.

مثلت أمامه بقلب واجف وعين مغرورقة بالدموع، لا تُصدق أنها تراه، لتستغرقهما قبلة طويلة لاهثة مجللة بالزفرات الحارقة، انفلتت الشفتان، استرد العاشقان أنفاسهما الضائعة. احتضنت وجهه بأناملها الرقيقة المرتعشة انفعالًا، تضحك وعيناها مغرورقة بالدموع. حملها بين ذراعيه وصعد بها إلى غرفتها في الطابق العلوي. ساءها شحوبه وخواء جسمه بشكل واضح، تهرّب من الإجابة، ولم يخبرها أنه أصبح مدمنًا عتيقًا للمورفين، وآخر جرعة تعاطاها وهو يبدل ملابسه منذ دقائق حتى تقوى أعصابه على الصمود، ولعله اعتاد نظرات القرف مثل التي سلخه بها المرافقون له.

سمع كارمن تُنهنه في مهدها، راح لها وقبلها ثم داعبها فابتسمت، تذكر كلمات ماري عنها في الخطاب، انثالت عليه تساؤلاته الحائرة عن حقيقة بنوة كارمن؛ مال يتأمل ملامحها الجميلة ولامس شعرها الذهبي، أخذ يقارن سيماها بملامحه ويحاول تقريبها إليه ولَمْ يُجزم، ثم يناجي نفسه «هل هي ابنتي بالفعل ؟».

لم تمهله ماري الفرصة لأي حديث، إذ تقدّمت نحوه واحتضنته من ظهره، استدار ليجدها تخلّت عن الروب الحريري، وأعلن جسدها عن غوايته، لثم شفتيها بقبلاتٍ سريعة متلهفة، فكّ جدائل شعرها، وتنشّق عطر جسدها الوردي الضاج برغبته، لَم تصطبر عليه طويلًا، لَفّت ذراعها البض حول عنقه تسحبه، ومالت به على السرير.. أصداء المديح والتواشيح المنثورة في أفق السماء، لا تنال من وقع أنفاسهما المتلاحقة، فيتكسر همس الغرام على لسانيهما ثم ينصهر في حرارة التلاحم الحارق. كارمن الطفلة توقفت عن بكائها، وكأنها استعذبت أنين متعتهما وائتنست بشهقات النشوة!

* * *

في تلك الأثناء؛ كان هاريس قد تلقّى في موقعه إشارة لاسلكية آتية من الكمين الذي مرّ منه لابان: « الساعة 4,55 م غادرت حالًا سيارة تابعة للقنصلية الفرنسية بداخلها مسيو«لابان بوانكاريه»، تأكدنا من هويتهم وسمحنا لهم بالمرور وقد ادعى مسيو لابان بشكل غير مقنع أنهم يتجهون جنوبًا لرحلة شتوية».

اندفع كالقذيفة خارجًا من خيمة المعسكر. وصلت البرقية الثانية: « تأكدنا بعد تتبع السيارة عن بُعد أنهم يقصدون مقر القيادة في نجع السعداوية، وأن

المرافقين لمسيو لابان ضابطان من المخابرات الفرنسية يعملان في القنصلية» قرأها فعرف وجهة عشيق زوجته.

قفز في غضب أهوج داخل السيارة الجيب المكشوفة، يتحسس مسدسه في جنبه، أمزا السائق بالعودة بسرعة إلى الكامب، الهواء البارد يلفحه ولا يحدث أثرًا في لهيب غضبه إنما يزيدة اشتعالًا، تتمثل له ماري بين أحضان لابان في طيات الظلمة الموحشة.

لما وصل، توقفت به السيارة في فناء الكامب، تفاجأ به الجنود يهرؤل إلى مبنى الإقامة، دفع الباب بيبادته في عنف، وعلى السلالم انطلق ركضًا. في الممر المؤدي إلى غرفة ماري تسلّل لسمعهِ صوتهما خافتًا فارتخت خطواته، ولما اقترب أكثر تحقق لسمعهِ مُناجاة العاشقين فطفح من أعماقه واقعه الكريه يزكم إحساسه بالغيرة ويخدّر عصب نخوته الطارئة، تمكّن منه عجزه المتأصل وتلاشى هيلمان سلطته من أمام عينيه : الجنود، النجع، الكامب، العمدة، حتى شارة التاج البريطاني على صدر بدلته العسكرية شعر بها تصمه بعار الدياثة! جرّته أقدامه المثقلة بالهوان لباب الغرفة يتسمّع ميوعة تأوهاتها، تدفعه رغبة قاسية أن يرى معذبته العنيدة خاضعة لرجل، شعور يكرهه ولا يستطيع الخلاص من براثنه، تكشّف الوجه الناعم الهادئ للنمرة الشرسة - ولو مع عشيقها - بعيدًا عن عنفها معه وازدرائها له.

وقف على عتبة الغرفة بأقدام سائخة، مذ جذعه ورمى عينين جاحظتين ناحية السرير أخذه مشهد تصوّرهُ شهوزًا وأضناه، وكانت الحقيقة أقسى من شطحات الخيال الموجع، لوحة نارية عارية مرسومة بدفقات النشوة، تنتقي له أقسى مشاهد العذاب؛ دفء وصال الجسدين العاريين لهيب مشتعل يحرقه، تأمل في حرمان وحسرة جمال ساقيها المنفرجتين، حركتهما الغاوية ترميه بجمرات الوجع، أظافر كفيها الرقيقة، تنفرد حانية على ظهر غريمه، لتنغرس في روحه أشواكًا صماء تخمشها وتمزع قلبه أشلاءً!

تراجع خطوات للوراء حتى التصق بالجدار في انهيار شامل، ولم يتنبه له العاشقان الغارقان في آبار النشوة، إلى أن تناهى لسمع ماري نهنهة مكتومة، اعتدلت ماري برأسها لتجد هاريس مقرفصًا ينتحب في صمت. لم تهتز بل ضمّت لابان وهي أكثر نشوة، تزحزحت قليلًا حتى تتمكن من قصف هاريس بعينيها، أودعت له في نظراتها المسمومة المشبعة برغبتها المشتعلة كل كراهيتها وحقدها له، وعلى كل من أسلمها إليه وحرمها من حبيبها : أبيها بعجرفته، طهارة

أمها، ديانة الخانع هاريس. تتشبث بعنق لابان وتطوقه بساقيها، تأوهاتها سقطت في سمع أذنيه كهزيم الرعد. همدت، وغيبت عينيها عن هاريس الباكي. اعتصرت شفتي لابان بقبلة طويلة، من تحته قامت عارية، وبريق اكتمال المتعة يزين وجهها، وقفت أمام الباب تصوغ ملامحها في قالب وردي تجاهر لهاريس بوافر المتعة!

فيما تفاجأ لابان بوجود هاريس، أول مرة يرى كلاهما الآخر. توتر من رؤيته بينما ظلت ماري رابطة الجأش، قالت له بسخرية وثبات «لا داعي للقلق.. إنه يعلم كل شيء.. ما كان ينقصه أن يرى فقط..»! عرج هاريس إلى الصالة مقهوزا، يفكر في وأد الفضيحة الوشيكة، أطل من الشباك في يأس، يتدبر الكيفية التي يساعد بها عشيق زوجته على الخروج الآمن. رأى السيد واقفًا أمام باب المبنى، الذي كان قد ترك المولد لدى علمه بعودة هاريس المفاجئة.

السيد يمثل له دائما عنصر أمان وتنفيذ الأوامر بغير اعتراض، وجد نفسه لا إراديًا يناديه. بدون نقاش صعد به للدور الثاني، وأمام الغرفة وقف به؛ لابان ارتدى ملابسه متأهبا للنزول، وماري تودعه وهي تتمرغ في أحضانه نصف عارية. هال السيد المنظر وانزعج، وقال هاريس للسيد وهو يشير إليهما في حقد وانكسار«هذا الرجل عشيق زوجتي..»، وغرق في صمت كسير فهم منه السيد الحكاية، ورأى - السيد - رغبة الانتقام في نظرة هاريس النارية، فيما استدرك هاريس ليحجمه بعدما تبدى التحفز على قسماته « لا مساس بماري الآن».
استعد لابان للمغادرة، ولما اعترض السيد طريقه بجسده العملاق أزاحه بازدراء، فانقض عليه السيد يكبله بذراعيه الجبارين عائدا به إلى داخل الغرفة. المشهد صعق ماري، مذهولة من جرأة هاريس وخادمه. لابان بجسده القوي دفع السيد عنه في استغراب من فكرة أن تأتي مقاومة من مثله - فلاح مصري - لفرنسي أبيض.

لم يمهله السيد، التف حوله وقيده بذراع والآخر لفه حول عنقه، وهاريس عند باب الغرفة يرتجف وعيناه تلمع ببريق الحقد. أخرج السيد من جيبه مطواته، وعلى عنق لابان أدارها يذبحه، لم يفلته إلا راكعًا على ركبتيه والدماء تتدافع خيوطًا غزيرة من عنقه كالنافورة!

شهقت ماري وأغمي عليها ووقعت أمام السرير بينما وقف هاريس يحلق ذعرًا فيما يفعله السيد، وهو يكمل في ثبات قطع أوتار رقبة لابان ويهشم عظامها، حتى فصلها تماما عن جسمه، وأمسك بالرأس المذبوحة من شعرها الأشقر وهي

تتأرجح في قبضته! لم يتصور هاريس أبدًا فكرة أن يكون هذا الرجل الخانع هو ذاته القوي الجبار الذي انتزع لتوه روح غريمه للأبد، وعلى راحته من انتهاء حياة معذبه، تنبه أن هناك فضيحة مدوية تنتظره، وكارثة ستحدث أزمة دبلوماسية بين البلدين، خلاف ما ينتظره من محاكمة جنائية، فاستنطق لسانه المذعور يحكي للسيد كل مخاوفه، مؤكدًا له أن هناك قوة من الضباط الفرنسيين، جاءت بصحبة لابان المقتول الآن ولا يعلم موقعهم ولكن لابد وأنهم يتبعونه. السيد أمامه يقف شامخًا رابط الجأش يداه تلزم جانبه، خاضعًا أيضًا لسيده حتى وهو في أكثر لحظات ضعفه وهوانه وانهياره، استودعه جثة لابان أن يتركها كما هي، وألا يسمح بدخول أي أحد للمبنى حتى يرجع إليه، بعدما أكد له أنه سوف ينهي الأمر كأن لم يكن!

***

نزل السيد يقصد ساحة المولد راكبًا حنطوره. الطشطوشي بين مريديه، تقدم نحوه ومال على أذنه وهمس. أشار بعدها الطشطوشي إلى نفر من الجموع رغبته أن يرتاح قليلًا، فأخذوه فوق محفته إلى داخل دوار العمدة، أنزلوه ثم انصرفوا. وفي بهو الدوار الفسيح كان السيد واقفًا في انتظاره، وقف الطشطوشي ناصبًا هامته ودخل وراء السيد غرفة بجوار مدخل الباب. وما إن اختليا ببعضهما حتى بادر السيد مازحًا :

- أنا قربت أصدقك يا عبد النبي إنك مبروك وسيدنا الطشطوشي بصحيح!

ضحك بدوره وهو يقعد جانبه على الدكة، ثم أكد له يقينه في مدى تأثير زعمه في أهل النجع بشأن حلمه بالنبي، وأنه سوف ينال من ادعاءات أبو الجود الخبيثة ضده. لما شكره السيد رد عليه :

- العفو والسماح يا عمدة ده خيرك.. ومين اللي عمل مولانا ده غيرك إنت!

استطرد وهو يزيح جلبابه ويتحسس أثر قديم لإصابة نارية :

- لولاك كنت هموت يوم ما خلصنا على رزق..

خرجت كلمات «عبد النبي» التالية مشمولة بالود والعرفان، يعيد على مسامع السيد ذكريات حاله البائس في أول يوم قابله في بيت حكمت الغازية، ويؤكد أفضاله عليه بأنه - السيد - من خلق له كيانًا، من مجرد مطرود هارب مهدد بالقتل والسجن يبحث عن عشيقته المسبية في الجبل، إلى شيخ طريقة مرموق

يتهافت الناس عند أقدامه ويقبلون يديه.

أخذ يحكي عبد النبي - كما اعتاد كلما قابل السيد - وقائع فجر ذلك اليوم المشهود، حينما انضم إلى السيد ورجاله، وهم يداهمون عرين رزق شيخ المنسر وأثناء الهجوم أصيب بعيار ناري، وقد رفض السيد تركه مع المطاريد بل كلف أحد الرجال بحملهِ إلى بيت حكمت الغازية، وأرسل وراءه من ينقذه ويداويه، واستطرد عبد النبي ممتدحا كرم ونبل السيد، بأنه في زهوة انتصاره بالقبض على رزق، لم ينسه بل زاره في بيت حكمت، وتكفّل بمصاريف إقامته وعلاجه تقديرًا.

بعد وقتٍ قصير أبلغه بأنه سوف يكون سيد كل الموالد، بعدما أخبره أن مجموعة من المريدين قابلهم في أحد الموالد، شكوا له همهم بأن شيخهم المبروك قد أوشك على الاحتضار ما سيقطع رزقهم من النفحات والمال والطعام من بعد موت الشيخ، فبادر يخبرهم بأنهم سوف يستمرون مع شيخ آخر ورأى في عبد النبي ذلك الشيخ، لِمَا توسمه فيه من قدرة على محاكاة الدور. جمعه - عبد النبي - بهم وخلال أيام مات المبروك العجوز وقدمه المريدون بصفته يحمل العهد خلفًا للشيخ المتوفى، بل وتمادوا بأنه مكلف به من جبريل عليه السلام.

قاطع السيد استرسال عبد النبي مباغتًا وردد في حزم :

- بس إنت لازم تموت انهردة يا عبد النبي..

* * *

في مبنى الكامب؛ هاريس واقفًا في الردهة مذعورًا، فبداخل غرفة النوم جثة لابان الممزقة، رأسه في منتصف الغرفة، وباقي جسمه مكوّم جانب السرير حيث ترقُد ماري تهذي في وهن وكارمن لا تكف عن البكاء. انكمش في مكانه حين انساب خيط من دم لابان عبر الغرفة يزحف إليه متعرجًا. يشعر بالكوارث قادمة لا محالة؛ الجريمة سيكتشفها الضباط الفرنسيين، لن يسكتوا على مقتل لابان حتى ولو كان بصدد مغامرة عاطفية مشينة، الدولة الفرنسية بإمكانها بسهولة كَسب معركة دولية خسيسة ضد بريطانيا العظمى، باستخدام جثة ذلك الوغد في ذلك التوقيت المشتعل، وأما ماري فلَن يردعها شيء تجاه اعترافها بما حدث.

أيقن أنه انتهى وراح يتخيل مصيره الأسود، راودته نفسه على الانتحار وحين لامست أنامله مسدسه عساه يتشجع ويفجر رأسه برصاصة، إلى أن سمع باب

الكامب يفتح بصرير كئيب، وصوت السيد يقترب متداخلًا معه صوت امرأة. وبعد ثوانٍ كان قد وقف أمامه بهامته العملاقة حاملًا في يده فأسًا، وعلى وجهه تحفز مغلف بهدوء وثبات جعل منظره مخيفًا، خرج صوته عميقًا مرعبًا وهو يتحدث إلى هاريس ويشير إلى المرأة التي تحمل زكيبة كبيرة «أنا وخدامتك حكمت راح نخلصو كل حاجة»، ثم أشار لها أن تدخل الغرفة وراءه.

قام هاريس في أعقابهما بأعصاب متهالكة يتسند على الجدار تزحف ببصره وتجرأ أن يلقي على الغرفة نظرة. السيد يهوي فوق جثة لابان بالفأس يكسر عظامها فتحدث دويًا مكتومًا، يضرب بقوة في منطقة الوسط حتى انكسرت إلى نصفين، برك فوقها يقطعها بالسكين أجزاءً صغيرة، أما حكمت فكانت تقيد ماري وتحكم فوق فمها قماشة تمنعها من الصياح أو الاستغاثة، فاقت ماري لثوانٍ فنطحتها حكمت في مقدمة رأسها بقوة رذتها لإغمائها، ثم خلعت عنها ملابسها تماما وتركتها على السرير.

انتهى السيد ونادى علها، عاونته في تعبئة الأشلاء داخل الزكيبة الكبيرة، ثم ألقى الرأس المقطوعة وأحكم إغلاق الزكيبة. أشار إلى حكمت بعدما انتهت من تنظيف الدماء من على الأرض، فحملت ماري بجسدها وصعدت بها أعلى السطح. كان السيد قبل مجيئه قد علم من رجاله بوجود أشخاص غرباء عن النجع، ليسوا من العساكر الإنجليز إنما هم أوربيون متنكرون في ملابس بلدية، فهم أنهم من جاءوا وراء لابان وأكد ذلك لهاريس فازدادت مخاوفه ولكنه إزاء نظرات هاريس المرعوبة والمتسائلة قال السيد له يطمئنه :

- الفرنساوية موجودين في النجع مستنيين الراجل بتاعهم.. لكن هنخليهم يمشوا من هنا وما يرجعوش تاني..

تتبع حكمت حتى صعدت إلى السطح حاملة ماري على كتفها مثل الدمية، واستدار يحمل الزكيبة وصوت العظام المتكسرة داخلها يحدث اصتكاكًا مرعبًا، نزل بها بعدما خلع عباءته المصبوغة بالدماء وألقاها في الزكيبة، وبقي لابسًا جلبابه، أكّد على هاريس البقاء مكانه بلا أي تعامل مع أي شخص!

* * *

من بعيد؛ ظل الضباط الفرنسيون يرقبون الكامب في تحفز وقلق بعد دخول هاريس المفاجئ، التصوّر مفزع، تراجعوا مرارًا عن اقتحام الكامب لإنقاذه، ستكون مذبحة وأزمة بين البلدين، ورغم ذلك الصمت الطويل طمأنهم إلى حد

ما. مكثوا ينتظرون خروجه لكي يلتقطوه في السيارة وينتموا المهمة عائدين به إلى القاهرة، أما هاجس عودتهم بدونه فهو أسوأ كوابيسهم. يتخيلون موقفهم المخزي أمام قائدهم «جوفيه» والقنصل ومن قبلهم الرئيس في باريس بعدما يعلمان بأمر تلك المهمة الغرامية المخزية. مز السيد من أمامهم راكبًا حنطوره بنفسه متجهًا إلى الدوار لم يعيروه اهتمامًا كبيرًا فلم يدركوا أن رجلهم المنشود مات مقتولًا، ممزقًا أشلاءً داخل الزكيبة التي يضعها جانبه في هدوء!

***

« سيدنا الطشطوشي.. مات.. سيدنا الطشطوشي مات يا بلد.. مات يا بلد».

بعد صراخ الخفير المفاجئ هاجت الجموع أمام الدوار كانوا ينتظرون خروج الولي المبروك بعد خلوته القصيرة مع العمدة لاستكمال حلقة الذكر. تدافعت الكتل البشرية سيولًا، تتزاحم وتصرخ وتصيح في أسى، هجموا دفعة واحدة على الساحة ليدخلوا الدوار في جموح غير واعٍ، حتى يرون الشيخ الذي أعلن عن وفاته. الخفر بدورهم أيضًا في حالة من الحزن، ولم يفيقوا إلا على الأجساد وهي تصطدم بهم لتدخل الدوار فأطلقوا في الهواء أعيرة نارية عساها تهث من صاعقة الخبر علهم، أغلقوا باب الدوار من الداخل، فيما تصاعد مد الصدمة سريعًا إلى نواح وعويل ودق على باب الدوار في يأس، حتى أطل السيد من الشرفة ينادي فيهم بصوت جنائزي «يا أهل البلد.. لكل أجل كتاب.. من كرم ربنا علمنا إن الشيخ يموت ويدفن في النجع.. راح نعمل ليه مقام حدانا.. اللي يحب الشيخ وعايز بركاته بعد مماته يروح مع الففر يعملوا ليه مقام».

بعد الاتفاق المسبق مع «عبد النبي» على إعلان خبر وفاة الطشطوشي، عاد السيد بالزكيبة إلى الدوار يعلم أن الفرنسيين لا يقلون قوة ورهبة عن الإنجليز فلن يصمتوا أو يقفوا مكتوفي الأيدي بعد مقتل ابن عم رئيسهم كما أخبره هاريس، فلو انخدعوا مؤقتًا حينما أدركوه خارجًا بزكيبة، كان لابد من تمزيق الجثة داخلها حتى تتوارى منها أي شبهة ويستطيع المرور بلا ريبة من الكامب إلى المولد ثم دخول الدوار.

سيكتشفون الحقيقة كاملة في غضون ساعات، ومن الأرجح أنهم سوف ينتقمون منه لما فعله برجلهم، مسألة كرامة دولة بحتة قبلما تكون انتقامًا منه أو من الإنجليز. ولو كان قبره في آخر الأرض فسوف يتمكنون من العثور عليه وأخذ الجثة وإدانة السيد فيكون هو الضحية، يدرك أنه لا أحد يستطيع توقيف

الفرنسيين سوى قوة العاطفة الدينية والروحية، ولا أولى ولا أهم في النجع بل والمديرية كلها من الطشطوشي، لا يمكن لقوة على الأرض أن تعترض موكبه المُجلل بالبيارق، ولا الاقتراب من مقامه أو المساس به، فلتبيد القوات الفرنسية والإنجليزية معًا أرواح وبيوت الناس قبلما تقترب - أو حتى تفكر- من المقام المبروك!

على أثر كلمات السيد وما رسمه لهم؛ سارت الجموع خلف الخفر تكبر وتهتف، يقصدون الكامب حيث هناك مبنى قصير كان مقررًا له أن يكون غرفة ملحقة بالكامب ولم يتم تقفيلها بعد، الليلة سيتم دفن الشيخ فيها، ثم يستكمل بناء المقام، يعاونهم في ذلك العساكر الإنجليز بتوجيه من هاريس، في عمل مقام للشيخ ويكون في الواقع أيضًا في حماية هاريس والقوات الإنجليزية. كفّن السيد جسد لابان وفرده داخل نعش أخضر مغلق وفي قمته عمامة الشيخ يتوسطها الريشة، يلفها المسبحة الطويلة.

هرب عبد النبي من البوابة الخلفية للدوار بعدما تخلى عن هيئته المعروفة من ملابس، وقص شعره الطويل وحلق شعر ذقنه. وبعد حوار قصير أوصى عبد النبي - بإخلاص - بأن يقوم السيد بتوزيع بعض التمائم التي تعطي للمقام هيبته ومصداقيته، شدّد أن توضع العمامة والريشة وجديلة من شعره داخل المقام، فوقهم قنديل من الزيت لا ينطفئ، يأخذهم كل فترة بعدما يعلن عن اختفائهم؛ ليتمكن هو الآخر بعد فترة من الظهور في موالد أخرى باعتبار أنه روح لا تختفي وتحلّ في أي جسد!

عادت الحشود وفي موكب مهيب سارت حاملة نعش الطشطوشي، وأمام القبر تقدم السيد داخلًا للمقام وفي الحفرة نزل بنفسه حتى لا يدرك أحد الجسد الممزق، وتعالت الصيحات تودع الجسد الفرنسي المذبوح «سلام يا سيدنا.. سلام يا سيدنا». يأس الضباط الفرنسيون من خروج لابان، عادوا خائبين إلى القاهرة ليس لديهم تصور عن أي تقرير سوف يكتبونه سوى جملة واحدة «لابان دخل ولم يخرج !!» وأدركوا أن هناك شبهة ومكر فيما حدث أمامهم له صلة أكيدة باختفاء لابان ولكنهم لم يضعوا يدهم عليها بشكل قاطع أو يستطيعوا فهمها.

كان الأهالي قد توافدوا على المقام منذ الساعة الأولى لدفن لابان فيه يشهدون إكمال بناء المقام بقبته الخضراء؛ يعتقدون أن سيدهم الطشطوشي لا زال بينهم، يشعر بهم حوله، سيحاسب كل فرد منهم إذا قصر في التوسل باسمه،

يطوفون، يتمسحون، يركعون. العساكر الإنجليز ذاتهم انتباتهم رهبة خفية منه إزاء ما يرونه من أعداد الناس ومن مقام بعض الأعيان الذين يأتون من البلدان المجاورة سعيا لشيخه المدفون تحت القبة الطينية.

تعلمات هاريس صريحة وقاطعة ألا يتعرضوا لأي شخص مهما بالغ في توسلاته أو اقترب من الكامب أو دخل إلى فناء الكامب، هاريس يرى أن اعتياد الناس المقام مقصدا يعطيه قداسة تزداد يوما تلو الآخر تمنح الكامب وسيده حصانة، ولو علمت المخابرات الفرنسية أن ابن عم الرئيس بوانكاريه الكبير مدفون بذلك الشكل المهين في قاعة ممزقا أشلاء، لن يقدر أحد أن يقترب من الكامب وينبش القبر ولو كان قائد أركان الجيش الفرنسي ذاته!

***

.. وقتما كان السيد يدفن لابان كانت حكمت تنفرد بماري أعلى سطح الكامب، يد غازية تمتد بمنتهى التبجح تنزع عن الكونتيسة ما بقي من ملابسها، وألقت بها مقيدة عارية تواجه البرد القارص وصفير الرياح الغشيمة. تنفذ تعلمات السيد الذي أخذ الإذن من هاريس، وقد وعده السيد أن تتم مسألة قتلها بلا أدنى شبهة في حقه. كلف حكمت فوافقت وعرضت خنقها، أعطاها السيد خمسة جنيهات وقال لها إن القتل بالحمى هو قضاء الله وقدره ووعدها بخمس جنيهات أخرى بعدما تتم مهمتها، ابتسمت وهي تدس المال في صدرها؛ الطريقة سهلة وتخلو من أي شكوك.

ومن زير كبير على السطح بدأت رحلة عذاب ماري، تكب الماء البارد على الجسد الأبيض المرتجف الذي صار في شحوب الموتى، ازرقت الشفتان وتخشبت الأطراف، العينان الزرقاوان شخصت تنظر إلى تلك العملاقة السمراء في تساؤل وذهول، ثم تحولت إلى ضراعة أن تعتقها. هاريس طيلة فترات تعذيب ماري، يتوجع، من أنه يرى حبيبة قلبه تموت ببطء، ولا ينسى انتشاءها تحت لابان وهي تنظر له ببجاحة، ثم يفكر في التراجع فيتذكر الخطر الداهم باعترافها عليه بقتل لابان.

كل آن وآخر تنزل حكمت إلى الطابق الثاني لتراعي الطفلة كارمن، أحبتها حكمت وكذلك اعتادتها الطفلة الصغيرة، تتركها في مهدها بعدما تشبع وتنام، وتصعد إلى ماري لتكمل مهمتها لتقبض الخمسة جنيهات الأخرى

الشمس تشرق وتغيب، ولا تزال شلالات المياه الباردة تهطل على ماري الراقدة

في استسلام تهذي، وفي فجر اليوم الثالث أحست حكمت بالكونتيسة تلفظ آخر أنفاسها، على كتفها حملتها ونزلت إلى غرفتها جففتها وألبستها ملابسها، وفي لوعة زائفة استدعى هاريس طبيب الوحدة الصحية بالبندر الذي جاء وشخص حالتها بالالتهاب الرئوي الحاد وأنه في حالة متأخرة، هاريس يعصر عينيه دمعًا كذوبًا بالغ فيه، وقال إن كل ذلك الأذى بسبب الأجواء السيئة في الصعيد ثم طلب منه تقريرًا بذلك، وبعث به إلى السفارة البريطانية. وصل إلى النجع «كونسولتو» من أطباء إنجليز استقبلهم هاريس لأجل الكونتيسة ورأوا حالتها المستعصية. انفرجت أسارير هاريس ورقص من داخله سعادة ووجهه يرسم اكفهرارًا وحزنًا. في يأس، وضع أحد الأطباء سماعته على صدرها يسمع النبض الذي وصل لأدنى مستوياته، فجأة تململت من رقدتها وفاقت لثوانٍ نظرت للأطباء بعين مذعورة، ثم وقعت عيناها على هاريس.. وشرعت تتكلم!

* * *

من لحظة وصول الأطباء الإنجليز وحكمت قاعدة في الصالة، بعدما خرجت من غرفة ماري. ازدحمت الغرفة بالأطباء الإنجليز استدعاها بكاء كارمن، هرعت إليها في جزع، ومالت على مهدها، تداعبها في حنان. عادت كارمن إلى هدوئها وهي تبتسم في وجه حكمت بشغف وامتنان، فقد استشعرت نفس اليدين التي تضماها وذات الأنفاس التي هفت على وجهها البدري الصغير. حملتها حكمت بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها، طبعت على وجنتها قبلة حانية، أودعت فيها كل مشاعر أمومتها المفتقدة بعد وفاة نجليها من زوجها الأول بالكوليرا، وفي السنوات التي سبقت تطليقها أصيبت بعقم غير مفهوم السبب، ولم تستطع أي داية علاجها؛ تطلقت من زوجها وهي لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها، احترفت الرقص على يد زوجها الجديد البورمجي ولم تمانع في احتراف البغاء.

أحبت كارمن من اللحظة الأولى التي وقعت علها عيناها، تضاعفت مشاعرها تجاه الطفلة في الوقت الذي كانت تقتل فيه أمها، بل كانت تضاعف من قسوتها على الأم الخائنة زوجة ذلك الرجل المهيب، حقدًا علها فأمثالها لا تستحق الحياة الرغدة التي تمنت لو أن شيئًا يسيرًا منها لأصبحت امرأة صالحة. تمشت بالطفلة خارج الغرفة بعدما أحست بحركة غريبة داخل غرفة ماري بين الأطباء، تطلعت إلى وجه هاريس وجدته ممتقعًا، فاقتربت وعلى عتبة الغرفة وقفت، ليتناهى إلى سمعها صوت غمغمة بالإنجليزية من ماري والأطباء متحلقون حولها.

تنبهت حواسها وهي تتبادل النظرات المذعورة مع هاريس، حياتهما ستنتهي إذا

فاقت ماري وتحدثت ولو لثوانٍ، تجمدت الحياة من حولهما وبكاء الصغيرة يتصاعد، سقط في أذن أمها فأدارت ناحيتها رأسها في وهن، وهي لا تزال تغمغم وتهذي بكلمات غير مفهومة، ألقت نظرة أخيرة على ابنتها، وأسلمت الروح!

أعد كبير الأطباء الإنجليز تقريرًا بالوفاة أنه بسبب الحمى. خلال يومين تم اخطار السفارة الإنجليزية، وإرسال جثمان الليدي في تابوت إلى لندن لتدفن في مقابر عائلة أودونيزي، أما لابان فشكّل اختفاؤه لغزًا بادئ الأمر لدى القنصلية الفرنسية، وسريعًا ما تحققت المخابرات الفرنسية مما حدث وأعدت تقريرًا سريًا مفصلًا بما حدث، وأسدلت الستار على الحادث وأعلنت وفاة ابن عم الرئيس متأثرًا بالملاريا في مصر حيث أقامت له قبرًا وهميًا في باريس!

***

.. وفي نجع السعداوية لم يبقَ أي أثر لماري سوى بضعة أوراق والجرامافون احتفظ بهما هاريس، أما كارمن الطفلة الصغيرة أصبحت في مسئوليته، فيما بقي هو في حيرة من أمره يتساءل عن حقيقة نسبها له. رأى السيد أن هاريس مهزوم نفسيًا بعد ما حدث معه، فاستدعى حكمت للتخفيف عنه، وطلب منها - بعد موافقة هاريس - أن تربي كارمن، واتفق معها سرًا أن تدلل الخواجة عساها تكون رفيقة له. خب حكمت للطفلة واستشعارها أنها تحتاج إلى منقذ لها، جعلها تنصت للسيد وتقبل عرضه أن تبقى مع هاريس وتستمر معه، صارت بالفعل له خليلة ومعشوقة فراش لا يقوى على الاستغناء عنها. استعاد معها رجولته بعدما كانت ماري قد أهدرتها وتركت له ندبات نفسية غائرة، جاءت حكمت ورممت ثقته في نفسه وأحيتها من جديد، بعدما أشعرته بقيمة شخصه ومكانته وقدرته في الفراش، أما هو فلم يغد يزدري لونها القمحي إنما بات يثيره، ويشعره بكامل الإثارة الناجمة عن شعوره بالتفوق العرقي عليها، على دونيتها معه تحققت في عينيه أنثى حقيقية، تُرضي غروره بخضوعها المبالغ فيه.

***

انتهت الحرب العالمية الأولى، ومدت القيادة البريطانية خدمة هاريس في موقعهِ بالكامب لأحداث ثورة 1919. نجح هاريس بمعاونة السيد في قمع الثورة والسيطرة على الأهالي من الخروج على السلطة. أثناء حفر الجنود الإنجليز بجوار الجامع الكبير لخندق استعدادًا لما قد تسفر عنه أحداث الثورة

العاصفة، خبطت الفئوس في حجارة صلبة، أزاحوا عنه التراب قادتهم إلى ممر وسرداب. تكتم هاريس على المسألة وأخطر القيادة، فأرسلت بعثة من مصلحة الآثار الإنجليزية، أفادت بأنها مقبرة فرعونية ملكية بها آثار ومخطوطات هامة تعود لعصر الأسرة الحديثة قبيل طرد الهكسوس من مصر. وضعت اللجنة تقريرها بضرورة الحفر السري والاستحواذ على محتويات المقبرة، لاستخراج القطع والمخطوطات الأثرية النادرة، تحت إشراف هاريس، تم تفريغ المقبرة وردمها ليتم اكتشاف مقابر أخرى مجاورة أكثر أهمية منها مكث لأجلهم هاريس في الكامب أكثر من اثني عشر عامًا.

***

.. مرت السنوات، استتبت الحياة لهاريس في النجع، وصارت حكمت ربة البيت، عشيقة لهاريس، ومربية لكارمن - التي شبت صبية - وقد اعتبرتها عوضًا عن أمها المتوفاه، وفي نفس الوقت مفتونة بها وبهيئتها وطريقتها المعجبانية، حين تلبس بدل الرقص وتغني وتتغنج أمامها، جمرة رغبة أشعلت فيها أجيج الأنوثة المبكرة، فلا تنسى كارمن - الصبية - ليلة فارقة في حياتها كانت بطلتها حكمت؛ مساء حار تقلقت فيه كارمن من نومها، خرجت من غرفتها إلى الشرفة، النجع أمامها غارق في سواد الظلمة، من بين الزراعات هفت عليها نسمة لطيفة، تخللت منامتها المفرودة فوق جسدها الآخذ في الاستدارة نحو اكتمال الأنوثة. وسط ذلك السكون الشامل، استدعتها همهمة آتية من غرفة أبيها، ظهر الصوت عاليًا، دفعها الفضول وتقدمت نحو باب الغرفة الموارب، ومن تلك الفرجة الضيقة المتروكة في الباب، رأت أبيها جاثمًا فوق حكمت؛ كتلة من اللحم الأبيض تنتفض بعصبية وإجهاد فوق جسد سخي فاره!

تصاعدت أمامها ذروة الاتصال بين الجسدين، سال ريقها والتصقت بحافة الباب، هاريس يعلو ويهبط بين الساقين السمراوين المنفرجتين في ثبات، استحلبت كارمن إغراء المشهد وانحصر لديها في ثبات الساقين الخمراوين وما بدا لها فيهما من قوة ورسوخ فوق السرير. وحين همد هاريس بجسده الأبيض أمام عيني الصبية بدا وكأنه بجسده الأبيض ذاب في بحر ماؤه أسمر!

امتلكت حكمت قلبها وسكنت روحها، دللتها في طفولتها وأسعدتها وهي صبية، تأثرت بها وشبت تعشقها، أحبت لونها ولهجتها وطريقتها، علمتها الرقص الشرقي بعد إلحاح حينما رأتها مرة ترقص. تشكلت كارمن فتاة بيضاء أوربية المظهر قابع في أعماقها أخرى شرقية، وفي الفترات التي كانت تقضيها في لندن مع

جدتها، لم تشعر يومًا بانجذاب نحو أي شاب أوربي، تراهم بلا حياة وأن دماءهم باردة. تفتقد ما تحكيه لها حكمت عن مغامراتها مع الرجال، تنصت إليها بشغف، فتحت مبكرًا عينيها مع حديثها المكشوف على عالم العشق والجنس.

انحفر المأثور من أقوالها في ذهنها، تحكي أنها حين عرفت كثير من الأوربيات في بيوت البغاء، لهن أثداء صغيرة، وأرداف ضامرة، بيض البشرة، جميلات الوجه، والغريب أنهن على جمالهن غير ساخنات رغم أن أشياءهم كما هي لم تحف بالموسي - بالختان - مثل غالبيتهن، ورجالهن ليسوا فحولًا مثل أبناء مصر وخصوصًا الصعيد. امتدحت حكمت جمالها وفتنتها، وتمنت أن تحظى برجل من المصريين السمر الأقوياء.

رسخت تلك المفاهيم في خيالها البكر وشكّلت قناعاتها الخصبة إلى حد بعيد، لا تنكوي مهجتها إلا برؤية السمار الرائق، وكان حسانين أول من صادفها بتلك المواصفات التي تحلم بها، تأنس إلى حديثه ولهجته، ولما أدركته يرفع جذع نخلة بذراع واحد كاد يسقط على الساقية، تاهت بقوته وتأملت ملامح وجهه الصارمة التي تحمل فوقها قوة الشرق التي تتمناها، ولكنها لم تستطع تخيل نفسها تحبه أو تفكر فيه كرجل لها، تراه جلفًا غير متحضر على حبها للطمي والحر والتراب يبقي شيء - أوربي - داخلها يعزلها عن العالم من حولها، يحدد لها مواصفات واعتبارات خاصة فيمن ستختاره حبيبًا لها.

خلاف أن حسانين يبالغ في احترامها ويشعر أمامها بدونية مفرطة وهو يعاملها، ما جعلها تلذع منه، صارت تكره مقابلته لأنه يغالي في انبطاح لا تريده أو تحبه، فلا يحدثها إلا وهو ينظر للأرض خاضعًا، يرتبك لحد الذعر إذا ما طلبه أبوها، تعاملت معه بمنطق أنه تابع لها وارتاح هو لذلك. انتهت فترة خدمة هاريس في النجع، وعادت كارمن مع هاريس، ليصير موظفًا مرموقًا في السفارة البريطانية. انقطعت صلتها بالنجع فعلًا، وإن ظل قلبها معلقًا به. لم تصدق وفاة حكمت بلدغة عقرب، تبكي بحرقة حتى الآن على فقدانها بغتة!

*****

10

وأنتِ ابنة زنا..

من الشرفة رأت كارمن سيارة حسانين تتوقف أمام الفيلا، نزل منها يتبعه زين.

تتبعت خطواتهما حتى دخلا من الباب. حسانين تراه لأول مرة منذ سنوات طويلة، صار رجلًا، واختلفت هيئته وتهذبت كثيرًا عما سبق، كان ملاذًا لها وهوّن عليها الكثير من آلامها، بحديثه الودود واصطحابها إلى البندر ليلًا، أثناء فترة كانت عصيبة في حياتها بعد عودتها مصدومة من لندن، حين سمعت في إحدى الأمسيات اللندنية، سيدة تقول لابنتها بتحذير شديد «لا أريدك أن تختلطي بهذه الفتاة.. أنها ابنة ماري أودونيزي».

اندفعت كارمن تسألها عن سبب تحريض الفتاة على نبذها، أجابتها في احتقار وهي تبتعد بابنتها «إسألي جدتك وهي تخبرك بكل شيء عن حكاية أمك مع ذلك الفرنسي». وفي قصر أودونيزي؛ وقفت تسأل الجدة الهرمة في ضراعة، تبكي في أسى وإصرار وجزع عن سر ذلك الازدراء الذي شافته في عين المرأة وما سمعته منها. تختلج عيناها ولا تجيبها إلا بالدمع، تتهرب منها وتزد علها بإجابات مقتضبة «إنها حكاية قديمة لا تعنينا في شيء.. أمك توفيت ولا تسألي أكثر».

صارت كارمن كالمجنونة، تقف أمام صورة أمها في بهو القصر تحادثها وتسألها. لم تستمر حيرتها طويلًا، عثرت على من يدلها من النساء الثرثارات، سمعت حكاية أمها مع لابان كاملة، وعادت تسأل الجدة، جاءها سكوتها بمثابة تأكيد لما سمعت، وفي النجع لما عادت سألت أبيها، ثار في وجهها وقال لها مؤكدًا إن أمها كانت فاسقة، وإن الرب انتقم منها بسبب أفعالها المشينة، هشم صورة أمها الملاك في ذهنها، زاد على عنف رده بأنه يشك أنها ابنته، ثم عاد واعتذر لها وحاول يسترضيها لكنها أبت أن تسامحه! حتى بعد ما مرت السنوات وانتقلت إلى العيش في القاهرة.

حياتها في القاهرة، توزعت بشكل كبير بين نادي الجزيرة وبيتها في جاردن سيتي، وعدد محدود من الرفيقات المصريات من بنات الطبقة الأرستقراطية. وفي النادي تعرفت على وجدي الصاوي، حاول التقرب منها بكل الأشكال لكنها رفضته، لا يعبر لها عن الرجل الشرقي القوي الذي تريده وتتمناه، تراه مصريًا يريد أن يصير أوربيًا ولا يستطيع، يبالغ في تبجيلها لأنها إنجليزية، جمالها الأبيض غير فاتن بالنسبة لها، قوامها الرفيع لا تحبذه بينما هو يحدثها عن الرشاقة ويستنكر على المصريات أجسادهن.

يبذل كل شيء لكي يرضيها، حاول إقناعها بنفسه ولكنه فشل، حاولت هي أن تفهمه أنها لم تحبه ولن تقبله زوجًا رغم توالي عروضه علها، كل عرض يحمل قدرًا سخيًا لا يرفض من عاقلة إلا هي، وفي لقاء عاصف مع وجدي، رفضت

كارمن الزواج منه وأصرت على موقفها منه، فقرر وجدي أن يقابلها بصديقه الصاغ أنور صديق عساه يقنعها به، وفي ذات الأسبوع تمت المقابلة، وندم وجدي على حصولها بقية عمره!

دخلت كارمن من الشرفة وفي طريقها إلى غرفتها، مرت من أمام غرفة هاريس، استفزها غناءه بصوتٍ كسير لأغنية إنجليزية شعبية، تماسكت واقتحمت عليه غرفته. تأملته في شماتة : نابت اللحية، نصف مشلول فوق كرسيه المتحرك. بإنجليزية متعجرفة قالت له بتشفٍ:

- ولو كنت أبي كما يقولون فأنا سعيدة بعجزك.. مذلتك انتقام إلهي لما فعلته بسيدتك الكونتيسة يا ابن الخادمة..

انقبضت أنامله المرتعشة فوق ركبتيه في غلّ، أشار لخادمه السوداني الواقف خلفه؛ فعاجله بكأس ويسكي تجرعهُ دُفعة واحدة. شكم ثورة أعصابه وضحك :

- الليدي عاهرة لندن.. لم تنس أن تُنجب داعرة مثلها لتكون ضيفة في فِراش الضابط المصري الأسود!

اشتعل الغضب في عينيها الزرقاوين:

- أنت وضيع!..

- وأنتِ ابنة زنا!..

حدجتهُ في كراهية، تركته واندفعت في الردهة صوبَ غُرفتها، فتحت الباب ووقفت على العتبة تتأملها؛ كل شيء كما هو منذ سافرت إلى لندن قبل خمس سنوات، تتفقد مواطن العذاب في أركانها بكُل ذكرياتها المبهجة مع حبيبها أنور صديق : التليفون تحادثه منه طوال الليل، الجرامافون أسمعها أرق أغاني الحب، الشيزلونج الذي تمددت عليه وهي تسمع من أنور أحلى كلام تسمعه عاشقة.

تقدمت في خطوات مهزوزة، شدّت الستائر وفتحت الشباك وأمام المرآة الطويلة وقفت؛ بدت كالشبح، تغيرت ملامحها من فُرط ما خسرت من وزنها. ومن دولابها التقطت صورة لم تنس مكانها - المخفي - منذ تركتها وسافرت، دق قلبها وهي تحتضنها بعينيها : ضابط وسيم في بدلة سلاح المدفعية، نظرته قوية وساحرة. ذكرياتها الحالمة معه تجرُّ في أذيالها الأوجاع الغائرة؛ استأثر بحياتها في جنة خادعة نبتت في أعماق الجحيم، ألهب أنوثتها بحبهِ، ثم دفنَ

جمزة الألم في قلبها بقسوته وغروره.

وفي أيام الفراق الأولى جاهدت للخلاص من سطوة حبه؛ حاولت أن تكرهه ولم تفلح، ففرّت من مصر بلده الحار تحس في هوائها الساخن بلفح أنفاسه الحارة تطوف فوق جسدها. لاذت بوطنها الضبابي البارد، وبين صقيع ثلوج بريطانيا اعتصمت لسنوات خمس، ولم تنعتق من لهيب معشوقها الأسمر. خذلتها ساقاها؛ فجثت على ركبتيها، وأمام الصورة نكّست رأسها في أسى، وفي سقطتها تماوج شعرها الذهبي السائب، متلبكًا على وجهها بدموعها المنهمرة. أقامت نحو وجهه الباسم في الصورة عينين : عاشقتين، لائمتين، باكيتين. لثمتها بقبلة حانية، أجهشت وهي تمزق الصورة برفق إلى نصفين.

*****

11

القاهرة ..65

انفلتت نسمة هواء من قبة السماء الغائمة، طافت على وجه أنور صديق، واقفًا بشرفة غرفة مكتبه في مبنى القيادة العامة للجيش، شاردًا يسحب أنفاس سيجارته قلقًا على الوضع السياسي والعسكري المضطرب؛ تأميم القناة مغامرة محفوفة بالمخاطر الإذاعة والصحف البريطانية لا تكف عن نقل أخبار الرأي العام البريطاني الغاضب على تمرد المصريين بعد الجلاء، نداءات السياسيين الإنجليز لا تتوقف عن المطالبة بضربة عسكرية عاجلة لمصر.

يرى أنور أن الإنجليز أصيبوا بشلل مثل رجلهم القوي في مصر«هاريس» الذي فاجأته نوبة قلبية منذ عامين. البوليس الحربي - الذي يتولى فيه أنور منصبًا هامًا - حريص على وضع هاريس دائمًا تحت المراقبة السرية؛ خشية اتصالاته الواسعة برجال العهد الملكي، فحتى لو كان قعيدًا في بيته بجاردن سيتي يُشكّل خطورة على الثورة، يُهدد أهدافها الستة المكتوبة في لوحة تحت صورة الرئيس المعلّقة فوق مكتبه.

وصول كارمن ابنة هاريس إلى مصر ليلة أمس قادمة من لندن علامة استفهام؛ استدعاه في الصباح لأجلها المشير عبد الحكيم عامر- صديقه القديم - وزير الحربية، بعدما كان قد كلّفه بمتابعة ملف «هاريس» وإعداد تقرير لمتابعة تحركاتها في مصر والغرض من زيارتها المفاجئة، ثم عرضه عليه شخصيًا.

قعد وراء مكتبه، وفوق رأسه كبس قبعته العسكرية، عساها تعصمه من صدمته؛ عودة كارمن إلى مصر نبشت قبور أحزانه، ونفخت الروح في رفات الحب الراقدة في مثواها القديم. بعد خمس سنوات؛ ترجع حبيبته من عزلتها في لندن، سنوات عصيبة - في غيابها - غزا خلالهم الشيب فوديه واستعمر الحزن قلبه. الآن؛ كارمن في القاهرة : مدينتهما الساحرة، اعتقدا يومًا أنها خلت لهما وحدهما من كل البشر فيها تمثلت ساحة الحب البائد، وفوق أرضها المخملية انتصب شاهد العشق المغدور. في لحظة عمياء بتر شريان الغرام بقسوة ونكران، قصمه الهجر بعدما هوّن من شأن وطأة الفراق وألمه على نفسه، تدافع الوجع في عروقه يرمح كالطوفان. تخايل له طيفها وهي تغدو وتروح أمامه وتنشق عبيرها، صدح في أذنه رنين ضحكة سعادتها بقربه، وفي ريقه جرت ملوحة دموعها وهو يلثم شفتيها بعد كل خصام عابر بينهما.

بدأ يكتب التقرير المطلوب منه بصيغته الرسمية، ارتعش سن القلم في المحبرة، وارتد كالملدوغ أن يصير خب عمره يصير مجرد سطور من حبر في متن تقرير استقصائي. تمنى لو فاض بكل شجونه وذكرياته في التقرير المطلوب منه، وحكى للمشير عن كارمن التي لم يعرفها أحد مثله. تأجج ذهنه انتفض قلمه بين أنامله؛ يحرضه أن يسكب تفاصيل أول يوم قابلها فيه!..

***

.. ماشيًا تحت شتاء القاهرة الماطر وبرودة هواء ديسمبر تلفح وجهه. في طريقه لمقابلة صديقه وجدي الصاوي، يتراءى له كل ما حوله ضاجًا بكراهية حكومة النقراشي باشا : الشوارع، المحلات، البنايات، المصريون؛ وهو أولهم. استقبلته بوابة جروبي الفخمة، خلع البالطو من فوق قامته المديدة وعلى الكرسي المواجه لوجدي قعد، في انتظار وصول «كارمن»، يتحفز لها من اللحظة التي علم أنه سيقابلها فيها، غالى في أناقته، ومن عينيه اندلعت موجات الكبرياء، يتحدى بها طبقتها المحتلة لوطنه.

وجدي يثرثر بحديث لا ينتهي عن فتاته الإنجليزية، يتوسل إليه أن ينجح أثناء جلستهم الوشيكة في إقناعها بالزواج منه ولو بكامل شروطها، وكلامه عنها لا يزيد أنور إلا إصرارًا على دحر غرورها وكسر عجرفتها المتوقعة. انشرح وجدي وهو يشير له ناحية الباب. وصلت؛ تطلّع إليها أنور وهي قادمة من بعيد، بعين ناقمة ظل يرقب خطواتها الرشيقة إلى أن جلست بينهما، وسارع وجدي يعرفها بأنور. خصلات شعرها الأشقر ترتمي على كتفيها كشلالٍ من الذهب، وجهها ناصع

البياض انفك جموده، وملامحها تضوي بنشوةٍ واضحة كلما تطلعت لأنور.. عيناها الفاتنتان معلقة عليه، وكلما تكلم أمامها اتسعت ابتساماتها. لاقى إحساسها الفياض منه استجابة مباغتة استغربها على نفسه : لم تستفزه لكنتها العربية المكسرة، إنما جاءه صوتها حالما دافئا، احتفت روحه قسرا بجمالها الأوربي ووجهها الأبيض وعينيها الزرقاوين. مع ابتساماتها الماسية تلاشى كل ما كان يضمره لها من كراهية. في وقت قام فيه وجدي ليجري بعض التليفونات، طلبت منه رقم هاتفه، كأنه مغيب كتبه لها في امتثال على ورقة صغيرة، جاء وجدي وانتهت المقابلة محبطة له.

.. وعند منتصف الليل رنّ تليفونه، وكانت هي. تسلل إلى سمعهِ صوتها رقيقًا كالسحر.. الدقائق الأولى مفعَمة بحديث عن سعادة الصداقة واللقاء، إلى أن فاجأته قائلة بمنتهى الجرأة والثبات « أنا أحببتك». في صمته غرق الضابط الجسور ولم تسمع منه غير أنفاسه تعلو وتهبط، فهمت ما يدور في ذهنه ناحية صديقه، فعاجلته قائلة لتبعد عنه أي حرج « وجدي بالنسبة لي.. لا شيء»! طلبت مقابلته، واتفقا أن يكون صباح اليوم التالي في نادي الجزيرة. انتهى الاتصال ولم تنم ليلتها؛ أخيرًا ظهر فتى أحلامها، ورأت حكمت تربت لها على كتفه وهي باسمة؛ ذلك الرجل الشرقي الأنيق، القوي، والوسيم بملامحه الصارمة : شاربه المنمق وثباته الواضح، يتخفّى وراء صلابته الغاوية حنين جارف أحسته، وفي دمه حرارة تعشقها، وإثارة تقصفها بها نظرات عينيه، وأكثر ما غازل أحاسيسها ناحيته أنه لَم تُبهره بشرتها البيضاء، أو يُهمه كونها إنجليزية مثل صديقه الرخو الذي لم تشعر ناحيته بأي عاطفة.

ومع أول ضوء للشمس قامت تتجهّز للميعاد، كل خطوة تخطوها في طريقها إليه، تزيدها إصرارًا أن تكتب معه ذلك الصباح أول سطور حكاية عمرها كله. وفي النادي؛ جاءتها التحايا من معارفها وأصدقائها كأضغاث أحلام، عقلها مغيب وقلبها منجذب إليه، وعيناها تنقبان عنه حيث ينتظرها. وفي الركن البعيد رأته مبهرًا يتألق مثل شمس تُشعّ رجولة. عند المصافحة، شعرت بأنامله تحتضن كفها الصغير فانبعث في جسدها حرارة صهرت جليد روحها. استدارت بكرسيها ناحيته، نظرت في عينيه، ولامست كفه بأصابعها الرقيقة المصبوغة بلون قرمزي زادهم جمالًا.

حملت إليه النسائم الباردة صوتها الدافئ محملًا بمشاعرها الملتهبة، إحساس بالزهو أراد كبحه كي لا يفشي في نفسه عاطفة تجاه إنجليزية - يزعم أنه - يكره

جنسها. عيناها تنطق باشتهائه وعشقه، شفتاها المتوهجتان بحمرة قانية تتمتمان له بعشقها الأسطوري، تحدوه صوب عشقه السرمدي، تسيح به في جناتها الدانية. ومع الأيام؛ استشعرت حبه يخطو ناحيتها بحذر رأت ابتسامته، قبلت رغبته في إعادة تشكيل ذاتها من جديد، ولم تمانع بل ارتمت في عالمه الغريب عليها!

***

.. نفسه تمور بعاطفة وليدة، غير أن إعجابه بالإنجليزية الشقراء أيقظ ما تعج به نفسه من تناقضات حاول دائما تجاهلها، بدءا من طفولته في الريف الذي يدعي لنفسه الدفاع عنه وعن أصالته، ثم تمرده في الواقع على الحياة هناك، واستنكار تصرفات أبوه لما كان يصادق الإنجليز ويتعامل معهم في تجارة خلقت لهم ثروة كبيرة، ولم يمنع على نفسه التمتع بها. ولا ينسى فرحته حين أبلغه أبوه أنه سيدخل الكلية الحربية بعد وساطة من أحد الضباط الإنجليز وإلحاحه عليه أن يتواصل معه لإتمام قبوله، ولما رفل في بدلته العسكرية ظل يلاحقه شعور بالمرارة، كلما ابتلعه طفا من أعماقه يخنقه، يذكره بأن وطنيته وشعاراته الحماسية التي يرددها مع بعض زملائه الضباط مزيفة.

مع كل لحظة شغف بكارمن الإنجليزية، يرتد لرفضه فكرة الزواج من ابنة عمه الفلاحة، فقد استكثر عليها قربها منه، وأن يدفن كل هذه القدرات في حضن تلك الريفية الأمية، التي اعتقد زملاؤه الضباط في زياراتهم له أنها خادمة البيت، حين قابلتهم بجلبابها، تضع صينية الطعام فوق رأسها وتبتسم في بلاهة. لم يرها أبدا مثل أمه : حرة، قوية، ملهمة، إنما مثل عينة أبيه : خانعة، ضعيفة، مكسورة. ثم انبرى يتأمل حال إخوته بإشفاق، رافضًا - وهو القوي الطموح - أن ينتهي به الحال مثلهم، أبًا لستة أولاد، على ثرائهم يرتادون الغيطان، ويسكنون بيوتًا طينية مقرونة بالزرائب. تخيل نفسه معها في الفراش وهو يتتبع جسدها أمامه، ولم يتحرك أو تثر مشاعره إنما نفر منه في قرف، لا يليق به غير ذلك الجسد المرمري الأبيض، يدعوه في كل تنهيدة ولمسة وهمسة أن يأخذه بلا هوادة!

***

.. القلم في يد أنور لا زال معطلا، الساعة أمامه تدنو من الثالثة عصرًا، المشير ربما يطلب التقرير في أي وقت، والورقة بيضاء كما هي، نضب ذهنه إلا من

مشاعر حبيسة تتضارب في أعماقه بعنف تستدعي له الذكريات مع حبيبته. في زمن يسير من وقت تعرفه على كارمن، ومشاعره معها بلغت الذروة، هبت فيهما كشرارة كانت تنتظر الوقود لتشتعل؛ رأى نفسه معها أمام سفح الهرم الأكبر ترتمي في حضنه، وجهها الجميل يطالعه بسعادة العشق، ذراعاها يلتفان حول عنقه، تذوب شفتاها في شفتيه، لا ينفلتان إلا ليعودا مجددًا لقبلة أخرى بعد همس ومناجاة للحب الملتهب.

تسلل حبها بقوة إلى قلبه، تأخذه قطعة تلو الأخرى، ولا يملك من أمره إلا وأن يناجيها بعاطفة حقيقية. يتساءل كيف تخرج كل هذه العاطفة من تلك الجامدة، فكل مرة يقابلها، يراها من بعيد مثل تمثال الشمع، فاتنة لكنها باردة جافة بلا حياة، وما إن تلامسه حتى تدب فيها الحياة، تتحول معه إلى بركان متفجر من المشاعر والأحاسيس، يصهر تحفظاته ويقهر تماسكه، يضعف أمامها ويخضع لسلطان العشق. يرشف من بئر عسل الحب أكبر قدر حتى يشبع ثم يهرب، لا يشبع من عطائها له، حبها ومشاعرها واهتمامها، ولا يزداد قربها منه إلا تعلقًا بها.

وفي نوبة عشق طاغية همس لها بأبدية الحب «سنتزوج» نطقها وهي في سريره، الذي كان مسرحًا لمشاهد العشق الصاخب، ارتمت فوق صدره وقبلت عنقه، ثم ذاقت من شفتيه أجمل قبلة ذاقاها مغا!

في زياراته الخاطفة إلى قريته طال حديثه مع أمه عنها؛ يكلمها عن تلك الشقراء الفاتنة التي امتلكت قلبه، وفي الزيارة الأخيرة أفصح لها عن نيته في الزواج من الإنجليزية التي أحبها. تماسكت الأم الريفية القوية وتطلعت لابنها، في عينيه رأت شغف يلازمه حيرة وتردد، أبدت له رغبتها أن تراها، وفي فجر اليوم التالي سافرت معه في سيارته إلى القاهرة للقاء العروس، وقبل التحرك سألته « هتفضل على دينها ولا هتبقى مسلمة يا ولدي»، التفت ناحيتها في حيرة ولم يجب!

***

وفي مساء اليوم التالي، كان العاشقان يجلسان أمام الأم كأنهما في ساحة للمحاكمة، بدت الأم كئيبة في ملابس الحداد السوداء، كارمن تتودد إليها فتحدثها بالعربية، تستدعي كلمات ومفردات صعيدية وتصيغها في قالب ضاحك، ولا تقابلها المرأة العجوز بغير وجه أسمر متجهم وصارم، وهي تئق برأسها في غضب مكتوم. نظراتها تعلن عن توجس وكراهية شبه مفضوحة، لم

تفهم له كارمن سببًا أكيدًا لها، ثم تطلعت لأنور باستجداء تستغيث به، رأته يرزح أمامها تحت جبل من الصمت، يرقب حركات أمه العصبية في استسلام وذهول، أدركت أن مصيرها مع حبيبها معلق في يد تلك الفلاحة ذات الوشم الأخضر في ذقنها، التي رمت نظرة على سلسلة تحمل صليبًا صغيرًا يلتف حول رقبة كارمن، ثم قامت بدون كلمة واحدة لما سمعت أذان صلاة العصر واستدارات في خطوات بطيئة تدخل إلى غرفتها لتصلي ولم تخرج ثانية.

أحبطت كارمن؛ تعلم مدى تأثيرها عليه، كلما حكى عنها تحدث بكل تبجيل، تعجبت كيف لامرأة كان عشرات من أمثالها في نجع السعداوية يرقدون تحت قدميها لخدمتها، أن تنجب ذلك الرجل الفريد، ولها عليه ذلك التأثير الجبار. على يأسها من لقاء الأم المحبط بقي لديها أمل وحيد، رهانها على حبه لها وتمسكه بها. وفي طريقهما لمنزلها لم يتحدثا إطلاقًا، جفوة أحدثتها بينهما الأم بكلماتها المقتضبة ونظراتها الحادة. استشعرت كارمن أن أنور يفلت من يدها، بئر الحب سممته المرأة العجوز التي كرهتها من أول دقيقة. أوقف أنور السيارة على أول شارع بيتها، ولم يختلسا قبلة كالعادة، وفي الهاتف دار بينهما اتصال فاتر مفعم بالحزن والأسى، كلماتهما على حيادها تشظت منهما مشحونة، تُنذر باقتراب عاصفة قاتمة. مر عليهما الليل ثقيلًا، ساعاته الطويلة تؤكد على اقتراب حدوث لقاء فاصل بينهما، وكلام مؤجل لا ينذر بالخير على العلاقة.

وفي الصباح التالي، فتح أنور شرفة غرفته، هفت عليه نسائم الربيع الدافئة، وأمام المرآة وقف يرتدي بدلته العسكرية شاردًا، يجاهد أن يتناسى ما حدث بالأمس، تمنى لو كانت معشوقته خمرية سوداء العينين، اسمها زينب أو عائشة. على سريره جلس ومال بجذعه للأمام يربط بيادته، اقتحمت عليه أمه الغرفة، وقفت أمامه بعباءتها الطويلة ككتلة من السواد، من انحناءته رفع بصره إليها خاشعًا، وبصوتها الهادئ الرنان قالت له «ما تنفعكشي»، ثم اندفعت مرة واحدة تهدر بغضبتها، تؤكد له أن الإنجليز وراء كل مصائب الدنيا متوجسة رافضة لمثل ذلك الزواج في قرارة نفسها، ولدها الثائر الكاره للإنجليز - كما يدعي لها دائمًا - يعشق ابنة أحد كبار رجالهم، لابد وأن تلك البيضاء الشقراء خطيرة أفعى رقطاء. قسوة كلامها وتحفزها باعثها كراهيتها القديمة لهم أيام أبيه، بعدما أفسد قربه منهم أخلاقه وسلوكه وشربه الخمر قطبت ما بين حاجبيها وهي تحدجه بنظرة طقّت من مُقلتها السوداء كالشرر تُجزم بأنه سوف يلقى مصير أبيه في أواخر أيامه - وهي كعادتها تأبى أن تدعو له بالمغفرة - لما عاشر الإنجليز وتاجر معهم، وأن سلوكه سوف يعوج على يد تلك الإنجليزية المنفلتة

maktabah.blogspot.com

الدمية، سوف ينصرف عن صلاته مثلما يفعل الآن، ولعله يشرب الخمر خِلسة عنها.

وهو يسمع منها ولا يرد، أحكم رباط بيادته بأنامل ترتعش، ثم وقف مخزيًا، شرع يقبل يد أمه الساخطة، التي سحبت كفها في الحال قبل ملامسة شفتي ابنها المارق، وانصرفت. عربة الجيش تتوقف أمام بيته، وفي طريقه إلى ثكنته العسكرية بالهايكستب، حادث نفسه بأنه مزيف بلا مبادئ، وأمهُ قاسية وكارمن هي الضحية. وفي مقر قيادة المنطقة العسكرية، تلقى فور وصوله تكليفًا عاجلًا بالسفر إلى فلسطين لحرب عصابات اليهود.

وفي المساء تقابل مع كارمن الجريحة، ولم يقدر أن يخبرها بفحوى حديثه الصباحي مع أمه عنها. أبلغها بنبأ السفر لفلسطين، ورغم ما تكابده من ضيق جزعت خوفًا عليه. في السيارة مكثا شبه صامتين، مكبلان بعدد لا محدود من الهواجس والأسئلة، ولم يفصح أي منهما للآخر عنها. وجد نفسه تلقائيًا يدنو من بيتها بسيارته محبطًا، فيما أحست هي بقبضة الفراق تعتصر قلبها؛ حبيبها يسافر للحرب، ولو عاد سالمًا عليها أن تخوض معركة أخرى مع أمه.

التفت ناحيتها ليواجهها بعينين كسيرتين، ارتمت في حضنه تبكي، خوفًا عليه وافتقادًا له، ضمها بين ذراعيه.. أنفاسه تفترش وجنتها وأصابعه تتخلل بين خصلات شعرها. أحسته ملهوفًا وحانيًا، ولكنه ليس أنور الذي عرفته، من زفراته السريعة شعرت به مهمومًا قلقًا. نزلت من السيارة، تتبعها ببصره واجفًا حتى غيبها دوران الشارع، دخلت الفيلا وفي غرفتها تمددت على الشيزلونج، تتخيله في رعب وهو مسافر إلى ميدان المعركة..

***

.. سِربٌ طويل من سيارات الجيب الجيش المصري الحربية، يعبر من العريش إلى رفح. أنور ضمن الفوج الأول للجيش المحارب في فلسطين، سيقاتل عصابات اليهود بعدما أعلنت بمنتهى التبجح سيطرتها على الأراضي الفلسطينية، إبان انتهاء الانتداب البريطاني عليها. بعد استراحة قصيرة في رفح تقاطر الجيش الكبير صوب غزة. أنور تناوشه زهوة الانتصار القريب، ويرى المجد يزحف إليه كونه ضمن الفوج المحارب الأول، بما أن اقتلاع اليهود مسألة يسيرة على الجيش العربي الأكبر. تدوي في أذنه الخطبة الحماسية في مجلس النواب للنقراشي باشا عن قوة الجيش وقدراته الكبيرة، وما تلاها من تصريحات

maktbah.blogspot.com

عبد الرحمن باشا عزام؛ أمين عام جامعة الدول العربية «سنقتل اليهود ونرمي بهم في البحر».

الجيش يمضي مظفرًا في صحراء النقب، يحتل المجدل والخليل لتطويق تل أبيب، وفي الفالوجا اكتشف الجيش الكمين اليهودي وتفوق قدراته العسكرية، أنور مذهولًا لما تساقط زملاؤه جانبه صرعى وقتلى كالجراد؛ النقراشي كاذب وعبد الرحمن عزام مأفون والملك عميل! تبخر من ذهنه أي مصداقية لهيئته في بدلته العسكرية، ومن خلفه الحاشية الفاسدة. على مدار شهور عصيبة؛ قذائف الهاون تصم آذانه، ورصاص المدافع كالمطر وأزيز الطيران الإسرائيلي وهو يقصف مواقع الجيش لا يتوقف.

اليهود يقتلون زملاءه بسلاح بريطاني، في حومة صراخه ولوعته، رأى في وجه كارمن - الذي افتقده - ضحكة شامتة، عيناها الزرقاوان تتحول في مخيلته إلى كتلة من اللهب، وبين يديها الرقيقتين تسيل دماء زملائه وجنوده، خطاباتها التي كان يقرأها بادئ الأمر ثم يمزقها، ثم رفض استلامها بعدما تذكر حديث سابق لها معها فهم منه أنها في أعماقها تحتقر المصريين مثل بني جنسها ولو أنكرت، تدفه فيهم أي موهبة على الرغم من مزاعم حبها لهم، وكأنها تذكره دائمًا بأنها تفضلت عليه حينما أحبته، ومنحته شرفًا كبيرًا بالاقتراب منها، أدرك أن الجرثومة البريطانية المتعجرفة كامنة فيها، حتى ولو سلمت له نفسها وتأكد من حبها.

تذكر له أيام نجع السعداوية وتتحدث بإشفاق ممزوج بقرف عن نساء فلاحات يرى فيهن أمه، ثم تحاشى هو أن يذكر لها أي شيء عن طفولته وصباه خجلًا، لأنها تحدثت كثيرًا عن حسانين الجلف الذي رأى فيه من نفسه وإخوته شيئًا وثيقًا. زادت قسوته عليها كلما زادت وطأة الحصار وتوغلت القوات الإسرائيلية في فلسطين، جاءت الهدنة بعدما خسر الجيش العربي أغلب قواته، نزل إلى القاهرة محبطًا كسيرًا، بأي وجه سيقابل أمه وهو مهزوم، بدلته العسكرية قممقم والنجوم الثلاثة فوق كتفه جمر من النار وفي صدره رجفة حب أراد وأدها!

* * *

انطلق رنين الهاتف الداخلي لمقر القيادة العامة للجيش في مكتب أنور صديق، التقط السماعة، جاءه صوت المشير عبد الحكيم عامر هادئًا:

maktabah.blogspot.com

- تعالالي يا أنور.. عايزك..

- حالًا يفندم..

قام أنور من وراء المكتب، ألقى نظرة على الورقة البيضاء التي لم يكتب فيها سطر واحد فيها، المشير سوف يسأله عن التقرير وليس لديه ما يجيب به. في الطرقة الرخامية الطويلة، ترتفع التحايا العسكرية لأنور صديق من الجنود والضباط الذين يقابلونه في طريقهم بمنتهى الإكبار؛ أنور أحد المقربين من المشير وصديق الرئيس من أيام حصار الفالوجا، ثم توطدت علاقته بهما بعد انتهاء الحصار وخروج الجيش مهزومًا من الحرب. أيامَ قاسية تجرع فيها مرارة الهزيمة، ثم مجاهدة نفسه في حب كارمن، حمّلها كل ما يعانيه من إحباطات ووجع.

حاول التهرب من مقابلتها بادئ الأمر ثم نازعته إليها نفسه. جاءته في نادي الجزيرة - مكان لقاءهما الأول - شاحبة زائغة العينين، وأول ما نطقت به وهي تبكي «أنا بحبك.. ارحمني ولا تعاقبني ببعادك». رقّق كلامها ونحيبها قساوة قلبه، لكن سريعًا ما استرده جفاء كان قد وطد نفسه عليه في صخب المعارك الخاسرة. سمع في بكائها انتصار وتذوّق في مذلتها بحبه تشفٍ وانتقام أراحه. اعتدل ناحيتها منتفخ الأوداج، وردد بنبرة رتيبة بطيئة وحادة « الحكاية خلصت خلاص». لملمت شظايا نفسها المهشمة، ومن أمامه قامت، فاستحكم الفراق بعد تلك الساعة، ومضى كل منهما في طريقه مبتعدًا.

بقي بعدها أنور مطاردًا بلعنة الحب، لا يمر يوم إلا تعاوده ذكرياته معها، إلى أن بدأ همس عاتب يتردد في وجدانه، لا يرجح كفة قسوته وجحوده معها، إلى أن ماتت أمه وصار ندمه صاخبًا غير محتمل، رافقه شوق وافتقاد، ولما سأل عنها علم أنها سافرت إلى لندن. حاصره صدى صوتها لما كان يبوح له همسًا بعشقها له، واغتال بقايا ثباته لهاثها برغبتها الحارقة، وأمام عينيه مضى قطار الذكريات كئيبًا وقاتمًا، يصفّر غاضبًا، يرتج فوق قضبان الأمل الضائع يسحق بجحود زهرة أيامهما المنقضية!

تذكر ان تلك الرواية تمت إعدادها عن طريق مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة .

بعد شهور؛ قام أصدقاؤه - من الضباط الأحرار- بثورة تمناها على الملك، وطردوا الإنجليز بعدها ولم يشف غليله تجاه فتاته الإنجليزية أو يستطع نسيان

مكتبة بيت الحصريات
maktabah.blogspot.com

حبها. تصاعد مد الثورة التي لم يكن قد اشترك فيها مع الضباط الأحرار ولكنهم قربوه منهم فيما بعد، باعتباره وطنيًا مخلصًا، ضابطًا كفئًا شارك الرئيس خندقه لشهور في الفالوجا.

وصل أمام مكتب المشير وأمامه أدى التحية العسكرية وبعد السلام الروتيني، بدر إلى ذهنه أن يقول له :

- التقرير ما خلصش يفندم..

استطرد أنور بعد أن رفع المشير حاجبيه متعجبًا من تأخره على القيام بعمل بسيط مثله :

- محتاج يفندم إني أروح هناك بنفسي أسال على شوية بيانات..

- هناك فين يا أنور؟!

- فيلا هاريس يفندم.

عوج المشير عنقه قليلًا، ثم بسط له كفه سامحًا له. دق أنور الأرض بحذائه بانفعال فأحدث طرقعة عالية. استدار وطلب من حرس مكتبه تجهيز سيارته ولما نزل أمام مبنى القيادة قال للسائق في انفعال وتوتر يشوبهما السعادة :

- اطلع بينا على جاردن سيتي.

* * *

دخل حسانين ووراؤه زين، في بهو فيلا هاريس الفسيح، الخادم السوداني كان قد قادهم إلى آخر البهو وأقعدهم تحت صورة الملكة الشابة الزابيث الثانية. يد حسانين تقبض على حقيبة الأموال التي سيدفعها عربون لمصنع هاريس. قبل انصراف الخادم سأله عن كارمن، فاقتضب الخادم أنه سوف يبلغها. زين يتطلع إلى كل ما حوله في انبهار وانكماش، هفت على ذهنه فاطمة وجنينها ابن الحرام، كره النجع، جلبابه، لهجته. بل وبدأ يفقد الثقة في وفاء الطشطوشي لهم. ولعن مجددًا الظروف التي تشده إلى النجع بعدما كان قد تنشق سبيل الخلاص، فصورة سكرتيرة وجدي الصاوي لا تبارحه يعقد المقارنات بينها وبين فاطمة في الرائحة، الملمس، الملامح، يتخيلها في فراشه ويسمع حتى صوت التأوهات، ويتعجب حتى من تلك الرغبة التي كانت تشعلل في أعطافه تجاه فاطمة والتي بردت، لما رأى فتاته البندرية!

maktabah.blogspot.com

تناهى إلى سمعهما صوت كارمن في الطابق الثاني تنادي على الخادم، زين ارتبك، وحسانين تلقفه الحنين إلى الماضي بصوت كارمن الحاني الذي عرفه جيدا أيام صباه، صعد إليها الخادم مسرعا، بعد دقائق عاد إليها يطرق باب الغرفة عليها حاملا بيده صينية عليها كأسين من العصير كما طلبت منه أن يأتيها بالمشروب. لما انصرف اقتربت من كأسي العصير. تذكرت ما سمعته من ريموند شقيق لابان في رحلة البحث عن بنوتها وحقيقة أن لابان أبوها، وقد أفادها ريموند أن السعداوية هم قتلة لابان وأمها بعده، تقارير المخابرات الفرنسية أكدت ذلك.

لم تتحرك السلطات الفرنسية احتقارا لما فعله مع الليدي ماري بالتنسيق مع المخابرات الإنجليزية نظير تسليم بعض جواسيس الحرب الفرنسيين لفرنسا. أمها ماتت هناك، ولا يوجد تصور واضح لقتلها سوى أنها تم الزج بها نحو التهاب رئوي أهمل في علاجه عمدا. جاشت نفسها غضبا، أخرجت زجاجة صغيرة من جيب فستانها، واقتربت من كأسي العصير؛ ستعاقب قتلة أمها بسم السيانيد، لقتلهم في دقائق معدودة. فتحت الزجاجة وهمت تزش المسحوق الأبيض لتقلبه حتى يذوب، انتزعها من إصرارها على تسميم الأكواب ما هفا على رأسها من ذكريات وحنين لحياتها السابقة في نجع السعداوية. وفي تلك اللحظة توقفت تحت شرفة غرفتها سيارة الجيش التي يستقلها أنور صديق وقد رأت جانب وجهه من داخل السيارة فارتجفت واهتزت في وقفتها حنينا وحبا، بيد أن مشاعرها تأججت كرها عندما تذكرت أمه التي لم تبارح مخيلتها أبدا، وضاعف من سخطها سماعها لصوت أذان المغرب فتمثلت لعينيها الفلاحة العجوز وهي تدير لها ظهرها لتدخل غرفتها رفضا منها لها!

***

.. قامت صلاة المغرب في جوامع نجع السعداوية، الصمت شامل لا يشقه سوى تمتمة المصلين، وتكبير الأئمة الخافت. نزل الظلام رويدا وخرج النساء من الفيطان يسحبن البهائم عائدات بها إلى الزرائب. هتك حجاب السكون صراخ انطلق ملتاعا كالنذير توقف له الزمن « الفيضان يا بلد»، اتحدت معه أصوات عديدة مذعورة انطلقت من كل أرجاء النجع، ارتبكت البيوت بضجيج مذعور دفع بالرجال نحو منحدر السيل العارم، تلحقهم النساء يحملن الأطفال، وفي الجوامع قطع المصلون الصلاة، فيما بقي آخرون يكملون الصلاة بأذهان شاردة، لعل إتمامها يعصمهم من الفيضان، مالبث وأن دار هتاف مذعور «المياه جاية

maktabah.blogspot.com

على المقام»!

خرج المصلون يهرولون من الجامع، وكلهم أمل أن لا تمر المياه تجاه المقام، الطشطوشي القادر على بعث نفسه من الموت، قادر على تبديل مسار الطوفان وحماية مرقده الآمن. للمقام مبروك يحميه، أما تهدمه وزواله، فذلك غضب من الطشطوشي عليهم لرعونة بعضهم التي لم يسامحهم عليها، واستقدم لأجلها الفيضان... قبل أيام وقف مغاوري يجمع الناس في حماس، بعدما تنقلت الأخبار- الآتية من القاهرة - أن الجمهورية المصرية الجديدة ستتعرض لضربة عسكرية من الإنجليز يعاقبون بها الضباط. انتفضت القاهرة والأقاليم بالمشاعر الساخطة وأعلنوا في البنادر والقرى المقاومة الشعبية.

وفي النجع حمل مغاوري فأسه، ليقصد الكامب ويهدمه، اندفع متبوعًا بالأتباع الثائرين، وأمام الكامب تفاجأ بجمهرة من شيوخ وكبار عائلات النجع تتصدى له، تراصوا يعترضون طريقهم بالنبابيت، يردونهم بعنف ضربًا وركلًا، ليمنعوهم عن تنفيذ تفكيرهم المتهوّر بهدم الكامب اللصيق بمقام الشيخ الطشطوشي؛ يخافون على المقام من التصدّع إذا ما نكّسوا - مغاوري وأتباعه - مبنى الإنجليز القديم؛ فمِنْ رقدة مولاهم في مقامه تتصل كراماته بعنان السموات السبع، ومنه تصعد روحه الطاهرة إلى رب العرش العظيم! .. أكرمهم الله بأن توفي الشيخ في بلدهم يوم المولد، ولما شيّعوا جنازته إلى مقامه المدفون فيه، حملوا نعشه فوق أكتافهم اكفهرت السماء حزنًا بغيوم سوداء!

انقذفت الجموع الغفيرة في جنون ناحية المقام، في أيديهم شكائر الرمال ومشنات التراب، ليصنعوا سدًا يدافعون به عن الطشطوشي، المياه ترمح نازلة من جهة الترعة في موجات عنيفة، تجرف في طريقها البيوت والغيطان والزرائب، تركزت في منتصف النجع، وفاضت في موجة عالية تهدر بوشيش مخيف، هجج الطير من أعشاشه في الأشجار. المياه المحفلة بكزات الطمي الصلبة، تجتاز سدود الرمال والتراب، وتتجمع في دوامات هائلة تقصد في إصرار القبة الخضراء!

ومِنْ ركن بعيد كانت فاطمة ترقب غرق المقام المحتمل بعين الحسرة، عجز أهل النجع وأبوها مغاوري، وكذلك العمدة حسن وهم يحاولون السيطرة على المياه لإنقاذ المقام. بكت لأن الوقت لم يسعفها لكي توفي ندرها له أن يرد لها زين حتى ينقذها من الموت بزواجه منها. وراحت تردد وهي تنتحب «كده بردك يا سيدنا..

maktabah.blogspot.com

ما كانشي العشم يا سيدنا.. تفوتني وتمشي قبل ما أجيلك»!

* * *

(تمت)

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF
تابعونا على الموقع الرسمي
www.maktabbah.blogspot.com
أو على قناة التيليجرام
t.me/alanbyawardmsr